

الفصل الأول

التوكيد في مقام الحديث عن العبادات

ويشتمل على سبعة مباحث

المبحث الأول: التوكيد في مقام الحديث عن التوحيد، أمور العقيدة.

المبحث الثاني: التوكيد في مقام الحديث عن الصلاة.

المبحث الثالث: التوكيد في مقام الحديث عن الزكاة.

المبحث الرابع: التوكيد في مقام الحديث عن الصوم.

المبحث الخامس: التوكيد في مقام الحديث عن الحج.

المبحث السادس: التوكيد في مقام الحديث عن الجهاد.

المبحث السابع: التوكيد في مقام الحديث عن الدعاء و الذكر.

الفصل الأول

التوكيد في مقام الحديث عن العبادات

مدخل:

العبادة هي الهدف الأسمى من خلق الجن والإنس -على السواء- قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(١)، ومن هنا كان إرسال الرسل بالشرائع السماوية التي تنظم العلاقة بين الخالق -عز وجل- وبين خلقه، وكذا بين الخلق وبعضهم.

"والمعلم مقرر: يتخذ وسيلة وأخرى كي يصل إلى قلوب التلاميذ في رفق رحيم، وحرص هادف، لأنه من أنفسهم، ومصطفى لهاديتهم، ومُهيأ بالفطرة ليكون إمامهم وقودتهم، فلا عجب أن يتخذ النبي -ﷺ- طريقة تقريرية يجعلها المنهج الأعم لتوضيح المعالم، وتمكين الرسالة"^(٢).

والبيان النبوي كله تشريع ونور يهتدى به "فكلامه -ﷺ- يجرى مجرى عمله كله دين وتقوى، وكله روحانية وحياة"^(٣).

"على أن آية الإبداع في تعبير محمد -ﷺ- - تروك حين يتحدث عن الأحكام التشريعية بلغة الأديب، فنحن نقرأ المواد التشريعية في كل قانون أَرْضَى جافة خشنة، تلوح لعقلك جامدة صماء، وكأنما كتب على ذوى التشريع أن يحبسوا أحكامهم في نصوص مظلمة مغلقة تتطلب منافذ الضوء في كل حرف، وإذا كان القرآن الكريم نسيج وحده في إبداعه التشريعي فإن نبى الإسلام قد استلهمه في أكثر ما شرع من أحكام.

إنك تقرأ أحاديث محمد -ﷺ- - التشريعية فلا يعيبك أن تجد طابعه الأدبي، وأن تتلمس عناصر أسلوبه تنادى على نفسها، وتغريك بتأملها، تاليا ومستعيداً حتى لينسى القارئ أنه يطالع تشريعاً، وله الحق في ذلك، فهو يقرأ أنموذجاً من الأدب القوى يعرض الفكرة معرضاً أخاذاً، فيبعث فيها من الحياة ما يكاد يخرج بها عن دائرة القانون في أنظار القاصرين"^(٤).

وأسلوب التوكيد من الأساليب التي أخرجت البيان النبوي على هذا النحو من الروعة، والوضوح، والبيان، يترأى لنا ذلك حينما نطالع نماذج من بيانه -ﷺ- في جامع الترمذى فيما يلي:

(١) سورة الذاريات، آية (٥٦).

(٢) الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية، ص ٦٥.

(٣) وحى القلم، تأليف: مصطفى صادق الرافعى، ٩/٣، مكتبة الإيمان، المنصورة.

(٤) البيان النبوي، ص ٤٧، د/ محمد حبيب لبيوى - دار لوفاء، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.

المبحث الأول

التوكيد في مقام الحديث عن التوحيد وأمور الحقيقة

المبحث الأول

التوكيد في مقام الحديث عن التوحيد وأمور العقيدة

التوحيد والعقيدة هما الأساس الذي يركز عليه إسلام المرء ومن ذلك قوله -ﷺ-:

"بَنَى الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ، وَحَجِّ الْبَيْتِ" (١).

فالإسلام هو الدين الذي ارتضاه الله -تعالى- لخلقه: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ (٢)

وجعله وسيلتهم في التقرب إليه، فبه ينقاد الخلق لخالقهم يأترون بأمره، وينتهون بنهييه، وهو مظلة يستظل الناس بظلها، ويحرصون على هذا الظل بإقامتهم لأسسه ودعائمه التي يركز عليها،

"إذ يقوم الإسلام كبناء على أساس هو العقيدة التي تمثل الإيمان بدعائمه وتتمثل زوايا هذا البناء في خمسة أركان هي التي حددها الحديث النبوي "بنى الإسلام على خمس" فلكي يقوم التدين على منهج سليم لا بد من الوعي بأسس البناء أولاً، ثم أركانه، ثم الانطلاق مع المكونات الأخرى لهذا البناء، فكل بناء لا يقوم على أساس وأركان يُعد مهدوماً، كما أن كل بناء يقتصر على الأساس والأركان يُعد ناقصاً غير كاف" (٣).

ومن هنا شرع النبي -ﷺ- أول الأمر يبين للناس الأسس التي يقوم عليها أعظم، وأكرم بناء وهو الإسلام، فعدّد أسسه على الترتيب الوارد في الحديث الشريف، وهو ترتيب دقيق بدأه -ﷺ- بمفتاح الإسلام الذي بدونه لا يُعدّ بباقي الأسس عند فاعليها (فمحافظة النبى -ﷺ- على ترتيب هذه القواعد لإفادة الأوكد فالأوكد، فقد يستنبط الناظر في ذلك الترتيب تقديم الأوكد على ما هو دونه) (٤).

(١) الجامع الصحيح، وهو سنن الترمذى لأبى عيسى محمد بن عيسى بن سورة. ت/ أحمد محمد شاكر، كتاب الإيمان، باب ما جاء فى بنى الإسلام على خمس. رقم الحديث (٢٦٠٩)، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان. بدون تاريخ أو رقم طبع.

(٢) سورة آل عمران، آية (١٩).

(٣) مجلة منار الإسلام، العدد الثانى عشر، ذو الحجة ١٤٢٠هـ، من موضوع: فريضة الحج من خلال الوحي وفقه التدين. للأستاذ: عبد الوهاب الفغرى.

(٤) ينظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم- للحافظ أبى العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبى،

ونظراً لعظم الأساس الأول - شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله - لارتباطه بالإقرار بوحدانية الله - تعالى -، ورسالة نبيه محمد - ﷺ - وهو الوجهة التي تتجه إليها بقية الأركان ضمّنه النبي - ﷺ - عدة مؤكّدات يظهر للسامع من خلالها مدى الاهتمام بالخبر المتضمن لها، وهذه المؤكّدات هي:

تصديره جمل الإيضاح الذي أعقب الإبهام، وما يفيد ذلك من شدة الاهتمام به، وزيادة توكيده، إذ أن أسلوب الإيضاح بعد الإبهام من الأساليب التي تفيد تمكين المعنى في نفس السامع.

"فإن المعنى إذا ألقى على سبيل الإجمال، والإبهام تشوقت نفس السامع إلى معرفته على سبيل التفصيل، والإيضاح، فتتوجه إلى ما يرد بعد ذلك، فإذا ألقى كذلك تمكن فيها فضل تمكن، وكان شعورها به أتم" (١) "إذ أن الحاصل بعد الطلب أعز من المنساق بلا تعب" (٢).

(والإجمال الوارد في الحديث الشريف في قوله: "بنى الإسلام على خمس" ليقف المؤمن عنده طويلاً يرقب التفصيل، ويعدده، ويحفظه، إذ عليه يتوقف أمر دينه، وتتحدد ملامح دنياه، وآخره، فإذا جاءت تفصيلات المجل، ووضح له ما كان خفياً، عض عليها بالنواجذ، ووضعها في ذاكرة لا تنسى) (٣).

هذا بالنسبة لجمل التفصيل عامة فما بالناس بما يقرع السمع أولاً، وأول أسباب الراحة والاستقرار النفسى عند السامع، وما يكون عنده بمنزلة أول قطرات الماء البارد الذي يروى ظمأه، ويبرد حرارة جوفه، إن تمكين المعنى، وتوكيده ليصير به مضاعفاً، وأكثر تقررأ من سائر جمل التفصيل المعطوفة عليه.

ونظراً لما للإقرار بوحدانية الله - تعالى - من أهمية عظيمة إذ هي الأساس والقطب الذي تدور باقى الأركان حوله تدعمه وتقويه، ولما للإقرار بالوحدانية من ثقل على نفوس غير الموحدين عند دعوتهم إلى التوحيد، ونبذ ما عداه من معتقدات باطلة، نرى النبي - ﷺ - قد

ت/ محى الدين ديب مستو - يوسف على بديوى - أحمد محمد السيد - محمود إبراهيم بزال - ١٧٠/١، ط١، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م.

(١) الإيضاح، ١٩٦/٣ - وينظر: شروح التلخيص ٢١٠/٣، ٢١١.

(٢) حاشية الدسوقي ضمن شروح التلخيص ٢١٠/٣.

(٣) ينظر: الإجمال والتفصيل وأسراره البلاغية في صحيح البخارى، رسالة ماجستير للباحث/ نصر عبد العزيز حسن الكتامى - ص٧٢، ٧٣ بتصرف - مخطوط في كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة، ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م.

ضمّن الشهادة والإقرار بالوحدانية أسلوب القصر، وهو يفيد "تقرير الكلام، وتمكينه في ذهن لدفع ما فيه من إنكار وشك"^(١)، ثم اختار من طرق القصر أقواها تأكيداً، وأنسبها لمقام الحث على التوحيد، وهو طريق النفي والاستثناء، ومحل هذا الطريق "الحكم الذي يحتاج للتأكيد لإنكاره، وكونه مما شأنه أن يجهل"^(٢)، وهكذا معظم الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي حضت على توحيد الله -تعالى- جاءت مشتملة على أسلوب قوى كهذا الأسلوب الذي تعرّض بقوة لمواجهة المعاندين والشاكرين طلباً لهدايتهم.

ولا يخفى ما تفيد "أن" المخففة من الثقيلة في جملة الشهادة لله -سبحانه- بالوحدانية أشهد أن لا إله إلا الله "من مبالغة في توكيد مضمونها وتقريره في النفس إذا أنها مثل أصلها أن المشددة في إفادة التوكيد وإن كانت تخالفها بما تتسم به من خفة وإيجاز لا ينفكان عنها وكذا عدم عملها وإن كان هناك من العرب من قال بإعمالها"^(٣).

ويتابع النبي -ﷺ- تأكيداً لما يحتاج إلى تأكيد وتمكين بإيلائه الشطر الثاني من الأساس الأول للإسلام اهتماماً وعناية، إذ لا يصح إسلام المرء بدون الإقرار برسالته -ﷺ-، ولا يقبل عمل ممن لا يصدق بها، ولم يبق حلاوة الإيمان من لم يشفع الإيمان بالله إيمانه برسوله محمد -ﷺ- "ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا"^(٤).

ففراد -ﷺ- مؤكداً الشهادة له بالنبوة والرسالة بـ "أن" المشددة ("وأن" مفتوحة الهمزة شقيقة "إن" المكسورة وهما لتوكيد النسبة ونفي الشك عنها، والإنكار لها وكلا الحرفين بمنزلة تكرار الجملة)^(٥).

"ويكونان لمجرد التأكيد إن كان المخاطب عالماً بالنسبة، ولنفي الشك فيها إن كان متردداً فيها، وإن كان منكراً لها فهما لنفي الإنكار، والتوكيد لنفي الشك مستحسن، ولنفي الإنكار لازم، ولغيرهما لا، ولا يستعملان إلا في تأكيد الإثبات"^(٦).

(١) الإيضاح، هامش ٥/٣.

(٢) حاشية الدسوقي ضمن شروح التلخيص ٢١٤/٢.

(٣) ينظر: شرح المفصل، لابن يعيش، ٧٤-٧١/٨، طبعة عالم الكتب -بيروت، ومكتبة المتنبى . بالقاهرة.

(٤) الجامع الصحيح للترمذي، كتاب الإيمان، باب ما جاء في ترك الصلاة، رقم الحديث (٢٦٢٣).

(٥) ينظر: شرح المفصل، ٥٩/٨، - ومغنى اللبيب عن كتب الأعراب، لجمال الدين ابن هشام الأنصاري،

ت/د- مازن المبارك- محمد على حمد الله- سعيد الأفغاني، ص ٥٩، ط ١ دار الفكر -بيروت،

١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

(٦) ضياء السالك إلى أوضح المسالك ٢٧٣/١، محمد عبد العزيز الخوار - مكتبة ابن تيمية

الرياضية، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

فمجيء "أن" هنا لتأكيد نسبة الرسالة للنبي -ﷺ- أمر لازم نفياً لإلكار المنكرين، ومن هنا لم يأت أمر الإقرار بالرسالة مرسلًا وخالياً من المؤكدات، بل جاء مقروناً بأن التي تقف حجر عثرة في وجه من يفرق بين الإيمان بالله، والإيمان برسوله ﷺ، فجملة الإقرار بالرسالة النبوية بذلك تبدو وكأنها كررت وأعيدت على الأسماع تمكيناً لها، وتأكيداً على أهميتها.

ومما يعظم أمر دعائم الإسلام الخمس جميعاً ويمكنها في ذهن السامع، هذا التصوير البياني الرائع في قوله -ﷺ-: "بنى الإسلام على خمس" وسبيل هذا التصوير كما ذكر الإمام العيني: "الاستعارة التمثيلية التي تمثل حالة الإسلام مع أركانه الخمسة بحالة خباء أقيمت على خمسة أعمدة، وقطبها الذي تدور عليه الأركان هو شهادة أن لا إله إلا الله، وبقية شعب الإيمان كالأوتاد للخباء"^(١) فبدون القطب الأوسط وهو الشهادة، والأوتاد التي هي بقية أركانه، يتقوض الخباء، ويذهب أدراج الرياح، وبهم يظل متماسكاً ثابتاً مكيناً، لا تقوى الرياح والأهواء على اقتلاعه، وإن طال قصدها إياه.

ووجه حصر أركان الإسلام في الخمسة المذكورة في الحديث الشريف "أن العبادة إما قولية وهي الشهادة، أو غير قولية، فهي إما تركي وهو الصوم، أو فعلية، وهو إما بدني وهو الصلاة، أو مالى وهو الزكاة، أو مركب منها وهو الحج"^(٢).

فالحصر بهذه الطريقة لم يدع أمراً يتعبد به الإنسان إلا ذكره على ترتيب يشهد بدقة النبي -ﷺ- وبأن منطقته عن وحى من ربه -تعالى- ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾^(٣).

وقد يقال: إن هذه الخمس هي الإسلام، فكيف يكون الإسلام مبنياً عليها، والمبنى لا بد أن يكون غير المبنى عليه؟

(١) عمدة القارى شرح صحيح البخارى، للشيخ بدر الدين العيني، ١/١٢٠ ط دار الفكر، بدون تاريخ = ذكر الإمام العيني أنه يجوز جعل هذه الاستعارة مكنية على أساس تشبيه الإسلام بمبنى له دعائم، ويجوز أيضاً جعلها تبعية بأن تقدر الاستعارة في "بنى" والقرينة الإسلام، ثم جعل الأظهر في هذه الاستعارة كونها مكنية. ويبدو لى أن الأنفع للمقام هو جعل الاستعارة تمثيلية لكون المعنى معها يزداد قوة وتمكيناً في ذهن السامع نظراً لما تحمله الاستعارة التمثيلية من ظلال كثيفة من المعانى، ولما توحى به من دلالات كثيرة على أهمية الأعمدة أو الأوتاد خاصة منها ما يتوسط الخباء الذى يمثل الإقرار بالشهادة.

(٢) عمدة القارى ١/١٢٠.

(٣) سورة النجم آية (٤، ٣).

والجواب هو (أن "على" فى قوله: "بنى الإسلام على خمس" بمعنى "من" وبهذا تحصل المغايرة بين المبني والمبنى عليه، أو أن الإسلام عبارة عن المجموع والمجموع غير كل واحد من أركانه) ^(١).

ونظرة فى نظم الحديث الشريف ترينا متانة سبكه، وجودة نظمه، وحسن تنسيقه، واحتواءه على كثير من الفنون البلاغية غير التى أوردتها سابقا، ومن ذلك:

الكناية عن صفة الإحكام والإتقان للصلاة فى قوله -ﷺ- : " وإقام الصلاة"، فهى كناية عن الإتيان بها بشروطها وأركانها ^(٢)، وللكناية فى النص النبوى يد جلية فى الحث على الاهتمام بأمر الصلاة، وعدم التهاون فى أدائها، وذلك من توفيقه -ﷺ- إلى كل ما هو جيد، (فالمجيد هو من يشحن فى ألفاظه من أسرار اللغة، فلا يكتفى بما تدل عليه الألفاظ والتعبير عن معنى حقيقى واضح الحدود فى أذهان الناس، بل يستغل إلى أبعد الحدود ظلال المعانى وما توحى به العبارات) ^(٣).

ومن ذلك أيضا: الإيجاز بالحذف فى أكثر من موطن من مواطن الحديث الشريف، ويتمثل ذلك فى (حذف الفاعل فى قوله: "بنى الإسلام على خمس" ^(٤)) وسبب الحذف هو أن الفاعل لا يجهله أحد، وهو الله - سبحانه وتعالى - وفى ذلك سرعة قصد للمفعول اهتماما به "حيث يبنى الفعل للمجهول لتركيز الاهتمام على الحدث بصرف النظر عن محدثه" ^(٥)، (وحذف المفعول الثانى فى قوله: "وإيتاء الزكاة") ^(٦)، وهو أدق أنواع الحذف والطفها، حتى قال عنه الإمام عبد القاهر: "واللطائف كأنها فيه أكثر، ومما يظهر بسببه من الحسن والرونق أعجب وأظهر" ^(٧)، ووصفه السكاكى بأنه "أحد أنواع السحر الكلامى" ^(٨)، وبسبب حذف المفعول هنا أخذ

(١) ينظر: تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى، للإمام محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفورى، ت/عصام الصباييطى، ١١/٧، ط١، دار الحديث: القاهرة، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.

(٢) عمدة القارى ١٢٠/١.

(٣) ينظر: من أسرار اللغة، د/إبراهيم أنيس، ص ٣٣٦ بتصرف، مكتبة الخانجى القاهرة.

(٤) ينظر: عمدة القارى ١٢٠/١.

(٥) الإعجاز البيانى للقرآن الكريم، د/ عائشة عبد الرحمن، ص ٢٤٣، ط٢ دار المعارف، القاهرة.

(٦) ينظر: عمدة القارى ١٢٠/١.

(٧) دلائل الإعجاز ص ١٥٣. للإمام عبد القاهر الجرجاني، ت/محمد محمد رشيد آل طرس، مطبعة بلدق، القاهرة.

(٨) مفتاح العلوم ص ٢٤٨.

الفعل نصيبه من الانتباه، وصار داعياً بنفسه على الحدث، ولذا نرى الإمام عبد القاهر يتحدث عن مثل هذا الحذف بقوله: "ومنه - أى حذف المفعول - أن تذكر الفعل وفي نفسك له مفعول مخصوص قد علم مكانه، إما بجرى ذكر، أو دليل حال، إلا أنك تنسيه نفسك، وتخفيه، وتوهم أنك لم تذكر ذلك الفعل إلا لأن تثبت نفس معناه من غير أن تعديه إلى شيء، أو تعرض فيه لمفعول"^(١)،

(وحذف المضاف في قوله: "وصوم رمضان" والتقدير: صوم شهر رمضان)^(٢)، وحذف المضاف وإبقاء المضاف إليه كثير ورود في البيان النبوي، وعنه يقول ابن الأثير: "هو باب عريض طويل شائع في كلام العرب"^(٣)،

فمن خلال هذا الحذف متعدد الأنواع، والمواطن بدا النص النبوي موجزاً ومتسماً بالتركيز على الدعائم الأساسية للإسلام اهتماماً وعناية بها، دون تطرق إلى تفاصيل لا يستدعيها المقام.

ولا يخفى ما للواو التي عطفت دعائم الإسلام الخمس على بعضها البعض من فائدة عظيمة حيث صارت الدعائم بسببها مترابطة متماسكة لا يكتمل البناء إن فرط العبد في إقامة أي منها، ليس هذا فحسب بل يبدو البناء ناقصاً ومشوهاً، اللهم إلا إذا كان السبب في ترك أحد دعائم الإسلام الأربعة عدا الأولى الأساسية، والتي لا تترك بحال من الأحوال ^{وكذا الثانية} هو عدم الاستطاعة إذ **﴿لَا يَكْفِي اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾**^(٤)،

* * *

(١) دلائل الإعجاز ص ١٥٥، ١٥٦.

(٢) ينظر: عمدة القاري ١/ ١٢٠.

(٣) المثل السائر، لابن الأثير، ٢/ ٩٣. / محمد حبي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، مبيد، بيروت.

(٤) سورة البقرة بعض آية رقم (٢٨٦).

وفى مقام تأكيد النبى - ﷺ - على الأهمية العظمى لكلمة التوحيد، وضرورة الالتزام بها، نراه - ﷺ - يثبت بشرى جليلة الشأن لأهل التوحيد، فعن أبى ذر - ؓ - أن النبى - ﷺ - قال:

"أَتَانِي جَبْرِيلُ فَبَشَّرَنِي فَأَخْبَرَنِي أَنَّهُ مَنْ مَاتَ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ. قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى، وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ: نَعَمْ" (١).

فالحق أنه لا يعدل توحيد الله - تعالى - طاعة، كما لا يعدل انتفاءه معصية، فالتوحيد إن وجد فهو أعظم الطاعات، وإن انتفى، فانتفاؤه ذنب تتضاءل بجانبه جميع الذنوب، قال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ (٢).

ومن هنا سلك النبى - ﷺ - كل طريق يمكنه من خلاله جذب الخلق إلى توحيد الله - تعالى - سواء بالترغيب كما هنا، أو بالترهيب كما هو الشأن فى أحاديث كثيرة أخرى.

فالرسول - ﷺ - هنا يزف بشرى تهفو النفوس لسماعها، وتتشوق القلوب لتحقيقها، يتلقاها الطامع فيبتهج، ويسعد، ويجد فى الطاعة، ويسمع بها العاصى فيأنس ولا ينقطع أمله، وربما سلك سبيل الطاعة لتحقيقها ونراه - ﷺ - وقد ألبس بشراه ثوب التقرير والتوكيد اهتماما بها، وذلك تصديرها بـ "أَنَّ" الداخلة على ضمير الشأن فى قوله: "أنه من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة"، وهو بذلك يستأصل شكا قد يتطرق إلى نفس بعض من يسمع هذا الحديث، وإن كان الأصل فى خبره - ﷺ - أن يتلقى بيقين كامل فى صدقه.

ولا يخفى ما لأنّ هنا من مزية فى إكسابها ضمير الشأن حسنا ولطفا لا يتحققان له بدونها.

"فمن خصائصها أنك ترى لضمير الأمر والشأن معها من الحسن واللفظ ما لا تراه إذا هى لم تدخل عليه، بل تراه لا يصلح حيث صلح إلا بها" (٣).

(١) الجامع الصحيح للترمذى، كتاب الإيمان، باب ما جاء فى افتراق هذه الأمة، رقم الحديث (٢٦٤٤).

(٢) سورة النساء، بعض آية رقم (٤٨).

(٣) دلائل الإعجاز، ص ٣١٧ = وهذا القول وإن كان مذكورا فى سياق حديث الإمام عبد القاهر عن "إنّ" بالكسر وموقعها مع ضمير الشأن، إلا أن الإمام أثناء تمثيله لهذا الأمر أورد شواهد بعضها جاء متضمنا لأنّ مكسورة الهمزة، والبعض الآخر جاء متضمنا لأنّ مفتوحة الهمزة، مما يدل على عدم تفريقه بينهما، وأنه إن مثل بأحدهما فإنما يقصدهما معا، بدليل أنه لم يفرد "أَنَّ" بحديث يخصها دون "إنّ" - [ينظر: إنمنا ومواقعها فى القرآن الكريم د/ عبد المنعم محمد السيد منصور، ص ٢٣، مخطوط فى كلية اللغة العربية بالزقازيق، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م].

وتقريراً لأمر البشارة بالجنة نراه - ﷺ - عبر عن دخولها بصيغة الماضي "دخل" تأكيداً وتمكيناً لها في نفس السامع .

ومن الملاحظ أن النبي - ﷺ - قد عطف ما يدل على ما أوحى به جبريل - عليه السلام - إليه من البشارة على إتيانه إليه، الفاء الدالة على السرعة وعدم التراخي في بث البشرى في قوله: "أتاني جبريل فبشرني..." وذلك لعظم أمر هذه البشرى، فالعطف بالفاء - خاصة - يوحى أن أول ما دار من حوار بين النبي وأمين الوحي حين أتاه، هو تلقينه هذه البشرى دون مقدمات إسراعاً بذكر ما يسر .

ومما يدل على شدة اهتمام النبي - ﷺ - بالخبر، تكريره ما يدل عليه بقوله "فبشرني فأخبرني" وأحد اللفظين كان يغنى عن الآخر لولا حاجة المقام إليهما معاً لما يوحيان به من تصوير صادق لحالة النبي ﷺ أثناء بثه البشرى لأصحابه بعدما أوحى إليه بها، فلفرط سعادته كرر ما يدل على الخبر طلباً لتأكيدهِ وتثبيتهِ في نفوس السامعين .

ولعل في الإخبار ما يفيد أن ذلك لم يكن معلوماً لدى النبي ﷺ وأنه وقع عنده جديداً فكانت البشرى بطابعها الأول .

ومما يلفت انتباه السامع أن البشارة مترتبة على عدم الإشراك بالله شيئاً كما هو وارد في نص الحديث "من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة" دون تطرق إلى ذكر التصديق برسالة النبي - ﷺ - مع العلم بأنه لا يعتد بإيمان من لم يؤمن به ويصدقهُ، والقول بكفره قطعاً، ويجاب عن ذلك بأن "قوله: لا يشرك بالله شيئاً، معناه بحكم أصل الوضع ألا يتخذ معه شريكا في الألوهية ولا في الخلق، لكن هذا القول قد صار بحكم العرف عبارة عن الإيمان الشرعي" (١) .

ونظراً لغرابة ما بشر به النبي، نرى أبا ذر - راوى الحديث - يعقب كلامه - ﷺ - بقوله: "وإن زنى وإن سرق" لعلمه أن من الموحدين برا وفاجراً، طائعا وعاصيا، والبشرى تعمهم جميعاً، فحق له أن يعجب، ويستفهم عما في نفسه بهذا القول، والاستفهام مقدر، وتقديره: أدخل الجنة وإن سرق وإن زنى" (٢) .

(١) المفهم لما أشكل من كتاب مسلم ٢٩١/١ - ٢٩٢

(٢) البخارى بشرح الكرماني، ٤٩/٧، ط ٢، دار إحياء التراث العربى بيروت ١٤٠٠ هـ / ١٩٨١ م .

ويجيبه النبي -ﷺ- بما يُوقفه على سعة رحمة الله -تعالى- بقوله: "تعم" موجزا في الجواب كما نرى، إعلاماً بأنه لا معقب لما قضى الله -تعالى-، وإن كانت رواية البخارى، ومسلم لهذا الحديث جاءت هكذا: "قُلْتُ وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ، قَالَ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ" (١) بإعادة لفظ السؤال في الجواب تأكيداً وتقريراً يتناسب مع حالة السائل حين سأل.

والمقام يؤيد رواية البخارى ومسلم عن رواية الترمذى -الذى معنا- وإن كانت رواية الترمذى لا تخلو من إيجاز يزيد لها حسناً، ويوحى بقطع الطريق على المعارض من بدايته.

ومما يدور في النفس السؤال عن السر في تخصيص السائل للزنا والسرقة دون سائر الذنوب؟

ويبدو أن الحكمة من ذلك هي "الإشارة إلى جنس حق الله -تعالى- وحق العباد، وكأن أبا ذر استحضر قوله -ﷺ-: "لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ" لأن ظاهرة معارض لظاهر هذا الخبر،

لكن الجمع بينهما على قواعد أهل السنة أن يُحمل هذا على الإيمان الكامل، ويُحمل حديث الباب على عدم التخليد في النار" (٢).

* * *

وبعد ما يطمئن المرء إلى رسوخ عقيدة التوحيد في قلبه، ويوقن يقيناً كاملاً بأن الله واحد لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله ابتعثه لهداية الخلق، عليه أن يوجه اهتمامه إلى جانب من أهم وأخطر جوانب العقيدة، ألا وهو جانب الإيمان بالقدر حتى يكتمل إيمانه، ويصير مؤمناً حقاً، ومن هنا كان سؤال الفاروق عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- رسول الله -ﷺ- قائلاً:

(١) ينظر: صحيح البخارى، للإمام أبى عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى، ت/د. مصطفى ديب البغا، كتاب الجنائز، باب فى الجنائز ومن كان آخر كلامه لا إله إلا الله. طه، دار ابن كثير، بيروت، دمشق-اليمامة بيروت، دمشق، رقم الحديث (١١٨٠)- الجامع الصحيح، المسمى صحيح مسلم، للإمام أبى الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم، كتاب الإيمان، باب من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة، ومن مات مشركاً دخل النار- نشر دار المعرفة، بيروت، لبنان، بدون تاريخ أو رقم طبع.

(٢) فتح البارى بشرح صحيح البخارى للإمام محمد بن حجر العسقلانى، ت/ عبد العزيز بن عبد الله بن باز. محب الدين الخطيب- محمد فؤاد عبد الباقي - قصي محب الدين الخطيب، [٣/١٣٣، ط ٣، المكتبة السلفية، ١٤٠٧هـ-.

يا رسول الله أرأيت ما نعمل فيه أمرٌ مُبتدعٌ، أو مُبتدأٌ، أو فيما قد فرغ منه؟ فقال:

"فِيمَا قَدْ فُرِغَ مِنْهُ يَابْنَ الْخَطَّابِ، وَكُلُّ مَيْسَرٍ، أَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَإِنَّهُ يَعْمَلُ لِلْسَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ فَإِنَّهُ يَعْمَلُ لِلشَّقَاءِ"^(١).

فما سأل ابن الخطاب - عليه السلام - إلا ليطمئن قلبه، وتهذأ نفسه عندما تجاب عما يدور بخلداه، ويشغل خاطرهما، وهنا يراعى النبي - صلى الله عليه وسلم - حال السائل، وحال من يسأل عن هذا الأمر فيما بعد، فيؤكد جوابه بعدة مؤكدات منها :

"قد" في صدر جوابه - عليه السلام - في قوله: "فيما قد فرغ منه" فالسائل يستفهم عن عمله هو وغيره من سائر الخلق، هل هو أمر حادث لا علم من الله - تعالى - به، وإنما يعلمه بعد وقوعه، أم أنه مقدر أزلا قد فرغ الله - تعالى - منه؟

وعلى الفور يجيب النبي - صلى الله عليه وسلم - بقوله: "فيما قد فرغ منه" مضمنا الجواب حرف تحقيق، وتوكيد، وهو "قد" الداخلة على الفعل الماضي "فرغ"، (وقد إذا دخلت على الفعل الماضي أو المضارع فلا بد فيه من معنى التحقيق)^(٢)، والمقصود بالتحقيق التأكيد كما صرح بذلك الزركشي عند بيانه لمؤكدات الجملة الفعلية بقوله: "أحدها: قد، فإنها حرف تحقيق وهو معنى التوكيد، وإليه أشار الزمخشري في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ معناه حصل له الهدى لا محالة"^(٣).

فكان النبي - صلى الله عليه وسلم - بذلك يقول للسامع: أمر العمل قد فرغ منه لا محالة، تمكينا للجواب، وتثبيتا له في ذهنه، خاصة وأن الفعل الماضي الداخلة عليه قد مبنى للمفعول، وذلك لتمام العلم بالفاعل، وما يفيد به بناء الفعل للمفعول من إسناد الفعل للفاعل مرتين،

قال ابن يعقوب المغربي: "إذا تحقق أن ذلك التركيب إسنادين فلا شك أن التركيب المشتمل على إسنادين أوكد وأقوى مما ليس فيه إلا إسناد واحد"^(٤).

(١) الجامع الصحيح للترمذي، كتاب القدر، باب ما جاء في الشقاء والسعادة رقم (٢١٣٥).

(٢) ينظر: شرح الرضى على الكافية، ت/ يوسف حسن عمر، ٤/ ٤٤٤، ٤٤٥، منشورات جامعة قار، تونس.

(٣) البرهان في علوم القرآن، ٢/ ٤١٧ - والآية من سورة آل عمران رقم (١٠١) - وينظر: تفسير الكشاف،

للمزمخشري، ١/ ٢٠٦، طبعة دار المعرفة بيروت، بدون تاريخ أو رقم طبع.

(٤) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص ١٧/٢.

وَمَنْ يَمَعن النظر يجد أن ما ذُيِّل به السؤال هو نفسه ما صُدِّر به الجواب، فكأن الجواب قد ذكر مرتين، إحداهما: من السائل نفسه حيث ذكره آخرًا، ومشفوعا بحرف التحقيق "قد" وكأن هذا الأمر هو ما تطمئن إليه نفسه، ولكنه أراد بسؤاله مزيدا من التحقق والتثبت لا أكثر.

والثانية: في صدر جوابه - ﷺ - وبدون مقدمات تفصل بين السؤال والجواب، لذا جئ في الجواب بقد وهي "لا يُؤتى بها في شئ إلا إذا كان السامع متشوقا إلى سماعه" (١).

(وبذلك يطمئن الإنسان إلى أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطاه لم يكن ليصيبه، ومن ثم تخلص أعماله من الحيرة والتردد، وينتفي من حياته القلق والاضطراب، لأنه بمجرد ما يترجح لديه الإقدام على أمر ما أقدم عليه في غير ما خوف، ولا هيبة ولا تردد ومن هنا فإنه لا يحزن على ماضٍ ولا يغتم لحاضر ولا يؤلمه هم المستقبل، وبذلك يكون أسعد الناس حالا، وأطيبهم نفسا، وأصلحهم حالا، وأهدأهم خاطرا) (٢).

ومن مؤكدات جوابه - ﷺ - النداء بـ "يا نداء" الموضوع للمنادى البعيد، مع قرب المنادى وفطنته، فوجد ذلك في قوله - ﷺ -: "يا بن الخطاب"، فلعلنا نسأل أنفسنا ما الداعي لاستخدام حرف النداء الدال على بُعد المنادى مع قربهِ ولا حاجة أصلا للنداء وإن كان النبي - ﷺ - لا محالة مناديا على سائله فلم لم يستعمل أداة، تتناسب مع موقعه منه؟ إذ لا يعقل أن يسأل عمر بن الخطاب النبي - ﷺ - وهو بعيد عنه حتى يتطلب الأمر نداء في الجواب وغير ذلك.

والجواب: أن ليااء النداء هنا حاجة يستدعيها المقام وهي (أنها إذا نودي بها القريب المفاطن فذلك للتأكيد المؤذن بأن الخطاب الذي يتلوه معنى به جدا) (٣)

فجوابه - ﷺ - كما ذكرت أكد على أن الأعمال أمرها قد فرغ منه، وهنا قد يتوهم بعض السامعين أن الإنسان مجبر على عمله الذي يعملهُ، فيسأل لماذا نحاسب إذن على أعمال جُبرنا على القيام بها؟ وذلك كما سأل الصحابة - رضي الله عنهم - من قبل النبي - ﷺ - بقولهم:

"فَفِيمَ الْعَمَلِ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ كَانَ أَمْرٌ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ" (٤)،

(١) البرهان ٤١٧/٢.

(٢) ينظر: عقيدة المؤمن - لأبي بكر جابر الجزائري ص ٤٣٦، ط ٢، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.

(٣) ينظر: تفسير الكشاف ٤٤/١ - والبرهان ٤١٥/٢.

(٤) الجامع الصحيح للترمذي. كتاب القدر، باب ما جاء أن الله كتب كتابا لأهل الجنة وأهل النار. رقم (٢١٤١).

فِيَاء النداء هنا تؤكد على أهمية الخطاب الذي يتلوها، والذي يجيب به النبي - ﷺ - على ما دار وقتها في ذهن سائله حيث قال: "وكل ميسر" قاطعا الطريق على كل وهم، أو ظن بما يخالف هذه الحقيقة، وهي أن الله - تعالى - قد فرغ من تقدير أعمال العباد، إلا أنه - تعالى - ترك لهم حرية الفعل أو الترك اعتمادا على العقل الذي ميزهم به.

كما يؤكد - ﷺ - المراد بـ "أَمَّا" في قوله - ﷺ -: "أَمَّا من كان من أهل السعادة... وأَمَّا من كان من أهل الشقاء.. فكلَا الجمَلَتين يُفَصِّلُ بهما النبي - ﷺ - ما أجمله في قوله: "وكل ميسر"، (والتفصيل من خصائص أَمَّا) ^(١)، وهو بعد يُشعر السامع بمدى الاهتمام والعناية بالخبر الملقى عليه، والرغبة في أن يرسخ في ذهنه.

وأَمَّا هنا تكسب المعنى توكيدا وتقريرا إذ أن فائدتها في الكلام كما قررها الزمخشري (أن تعطيَه فضل توكيد، تقول: زيد ذاهب، فإذا قصدت توكيد ذاك، وأنه لا محالة ذاهب، وأنه بصدد الذهاب، وأنه منه عزيمة، قلت: أَمَّا زيد فذاهب، ولذلك قال سيبويه في تفسيرها: مهما يكن من شئ فزيد ذاهب. وهذا التفسير مدل بفائدتين: بيان كونها تأكيدا، وأنها في معنى الشرط) ^(٢)

وكونها شرطية (فدليل لزوم الفاء في جوابها لما فيه من معنى الجزاء) ^(٣)، وإفادتها الشرط فيه إيقاظ السامع، وحث له على التنبيه لما يلقي عليه.

هذا و "إِنَّ" في قوله - ﷺ -: "فإنَّه يعمل للسعادة.... فإنَّه يعمل للشقاء" تزيد مضمون جواب الشرط توثيقا، وتقريرا (نظرا لإفادتها التأكيد لمضمون الجملة حتى وكأن الجملة بسببها قد تكرر ذكرها وطرقت أذن السامع مرتين) ^(٤) حتى لا يتوهم أن السعادة أو الشقاء قد ينال أي منهما بلا عمل يستوجبه.

(١) ينظر: مغنى اللبيب ص ٨١ - والإتقان في علوم القرآن، للحافظ جلال الدين السيوطي، ت/محمد أبو الفضل إبراهيم، ١٦٥/٢، مكتبة دار التراث- القاهرة، بدون تاريخ أو رقم طبع

(٢) ينظر: الكشف ٥٧/١ - ومغنى اللبيب ص ٨٢ - والبرهان ٤١٦/٢، ٢٤٢/٤ - الإتقان ١٦٦/٢.

(٣) ينظر: المقتضب، لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد، ت/محمد عبد الخالق عضيمة، ٢٧/٣، طبعة المجلس الأعلى للشنون الإسلامية- القاهرة ١٤١٥هـ/١٩٩٤ - ومغنى اللبيب ص ٨٠ - والكشاف ٥٧/١ - والبرهان ٢٤٢/٤.

(٤) ينظر: شرح المفصل، ٥٩/٨.

ولا يخفى ما أحدثته إنَّ من تحسين لموقع ضمير المخبر عنه، وإبرازه قويا ذا أثر يعلق بسببه فى ذهن السامع وخاطره.

كما أنه لوضع الظاهر موضع المضمّر فى قوله -ﷺ-: "للسعادة" و "للشقاء" بدلا من الهاء فى الجملتين، لذة مع القول الأول، وألم مع القول الثانى، فالأول يزيد من يعمل للسعادة سرورا واطمئنانا، والثانى يزيد من يعمل للشقاء حزنا وانكسارا، وذلك لذكر كل من السعادة، والشقاء مكررا بلفظه، ووضعه موضع الضمير (وما يفيد ذلك من زيادة توكيد المعنى وتقريره) ^(١) (لكون الكلام بذلك خرج عن مقتضى الظاهر الذى ينتظره المخاطب من المتكلم فى صورة مختلفة لا يكون العدول إليها إلا لوجه من تقرير المراد) ^(٢).

وأخيرا يزداد المعنى المراد تأكيدا وتقريراً فى نفس السامع، وذلك بتوشّحه بوشاح المقابلة فى قوله -ﷺ-: "أما من كان من أهل السعادة فإنه يعمل للسعادة، وأما من كان من أهل الشقاء فإنه يعمل للشقاء".

"والطباق مفردا ومكررا على سبيل المقابلة يؤكد المعانى، ويقررها عند المخاطب لأن الضد يظهر حسنه الضد، وبضدها تتبين الأشياء، وهو فى الحديث الشريف يستعمل لاستيعاب الحكم للمتقابلات، وذلك ظاهر الشأن فى التقرير.

أو يستعمل لتقابل الحكمين إظهارا، وإيضاحا لكلا المقامين ترغيبا بأحدهما، وترهيبا بالآخر، وشرّية الشر تؤكد خيرية الخير بالمفهوم، فضلا عن اقترانها بها فى الذكر، فليس الطباق لمجرد تحسين الكلام فى حديثه -ﷺ- ولا لهوا من لهو الفارغين، وإنما هو يودى أغراضا أصيلة لا تودى دونه، فالتحسين به حسن طبيعى غير مقصود لذاته" ^(٣).

وهكذا رأينا أن المؤكدات الواردة فى الحديث الشريف على كثرتها تعمل عملا جماعيا فى زيادة إيضاح المعنى وتوكيده، خاصة وأن الأمر المتحدث عنه أمر كثيرا ما يُشغل فى النفس جذوة الفضول، والرغبة فى الوقوف على الحقيقة التى زلت أقدام بسببها، وشردت عقول فى

(١) ينظر: البرهان ٤٨٢/٢.

(٢) ينظر: الحديث النبوى الشريف من الوجهة البلاغية ص ٣٣٧.

(٣) الحديث النبوى الشريف من الوجهة البلاغية ص ٢٣٩.

طلبها، فانتهى بها المطاف إلى الإلحاد، والانغماس فى ظلمات الريب، ولهذا أكد النبى - ﷺ - قوله هذا ووثقه، وقرر فى حديث آخر أن إيمان العبد لا يكمل حتى يؤمن بالقدر فقال:

"لَا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدْرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ وَأَنَّ مَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبْهُ"^(١).

* * *

ومن عقيدة الإيمان بالقدر، وأن الله - تعالى - مسبب الأسباب أزلا، إلى عقيدة التوكل والاعتماد على الله - تعالى - والاستعانة به، نرى ذلك فى قوله - ﷺ -:

"لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرُزِقْتُمْ كَمَا تُرْزَقُ الطُّيْرُ، تَغْدُوا خِمَاصًا، وَتَرُوحُ بِطَانًا"^(٢)

فالتوكل عبادة قلبية، وهو سكون القلب إلى كفاية الله - تعالى - وتفويض الأمور إلى الله - تعالى - لكفايته، والاعتماد عليه - سبحانه - لعلمه وقدرته، ولما كان لا كفى إلا الله، ولا قادر على كل شئ سواه، ولا عالم بكل شئ غيره، كان التوكل على غير الله - تعالى - باطلا وشركا، وكان المتوكل على غير الله - تعالى - سكونا، ووثوقا، واعتمادا مشركا^(٣).

فالتوكل بذلك من مكملات التوحيد، ومن ثم نراه - ﷺ - يُوليه عناية واهتماما يتمثلان فى عرضه مؤكداً بأكثر من مؤكّد، بأسلوب يبعث الشوق فى نفس السامع - إن لم يكن من المتوكلين - إلى التزام التوكل على الله - تعالى - فى كل شئونه، ويزيد المتوكل على الله يقينا، واطمئنانا.

(١) الجامع الصحيح للترمذى، كتاب القدر، باب ما جاء فى الإيمان بالقدر خيره وشره. رقم (٢١٤٤).

(٢) السابق، كتاب الزهد، باب فى التوكل على الله. رقم (٢٣٤٤).

والتوكل: اللجوء والاعتماد - تغدوا خماصا، وتروح بطانا: أى تغدوا بكرة وهى جياح، وتروح عشاء وهى ممتلئة الأجواف، والبطون. النهاية فى غريب الحديث والأثر لابن الأثير. ت/ أبى عبد الرحمن صلاح بن محمد بن عويضة - المواد أوكل - خمس - بطن | ط ١، دار الكتب العلمية بيروت. ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧.

(٣) عقيدة المؤمن ص ١١٨.

ومؤكدات الحث على التوكل على الله -تعالى- في الحديث الشريف هي:

التوكيد بـ "أن" في قوله -ﷺ-: "لو أنكم" فمن اهتمام النبي وعنايته بشأن التوكل على الله -تعالى- وإسناد الأمر إليه مع السعي طلباً لتحصيله، نراه -ﷺ- يُصدّر حديثه بأنّ المؤكدة التالية للو الشرطية، فأداة الشرط تعمل على إيقاظ السامع، وجذب انتباهه لما يُلقى عليه، فإذا به يتلقى خبراً مؤكداً بأداة تعمل على تقريره وتثبيتته، وهي أنّ المفيدة لتوكيد مضمون الجملة، وبذلك يركز المعنى المراد في الطبع، ويتجه عقل السامع بعدها إلى البحث عن السر في توكيد خبره، فيثبت عنده عظم شأن التوكل على الله -تعالى- فيلتزمه في كل شئونه.

ثم إن نعت التوكل المطلوب التزامه بقوله -ﷺ-: "حق توكله" يفيد أن للتوكل النافع صورة خاصة يجب التزامها طلباً للنفع، وفراراً مما يشوب ما عداها من الوقوع في براثن الشرك دون قصد من العبد.

ومما يحفز السامع على التزام منهج التوكل في حياته توكيد نتيجته باللام الداخلة على جواب لو الشرطية، في قوله -ﷺ- "لرزقتم"، فعن هذه اللام، وإفادتها التوكيد "يقول الزمخشري: لام جواب لو، ولولا تؤكد ارتباط إحدى الجملتين بالأخرى"^(١)، (وقيل: إن اللام في جواب لو، ولولا زائدة مؤكدة، ودليل ذلك جواز سقوطها)^(٢)، (فهى تزداد لتأكيد معنى الجملة بتمامها وتقويتها، ومن ثم يكون التوكيد بها محضاً)^(٣).

فالنبي -ﷺ- يعرض حديثه في سياق الحكاية عن أمر مضى طلباً لتوجيه السامع إلى التزام منهج التوكل على الله، في رفق رحيم، حيث يبصره بأن توفيقه في أمور مضت كان متوقفاً على وجود سببه المنوط به، وهو صدق التوكل على الله -تعالى- ومن ثم عليه أن يعتمد هذا المنهج فيما يستقبل،

فجملة الشرط جاءت بصيغة الماضي "لو أنكم كنتم توكلون...."، وكذا الجواب جاء ماضياً مقروناً بلام التأكيد التي تكسبه تقريراً وتوكيداً، وذلك على سبيل طلب الاستفادة من أحداث الماضي التي يستحضرها السامع أمام عينه ليزداد يقيناً من صدق ما يسمع.

(١) شرح المفصل ٢٢/٩ - الإتيان ٢٢٧/٢.

(٢) ينظر: شرح المفصل ٢٢/٩ - ٢٤.

(٣) ينظر: ضياء السالك إلى أوضح المسالك ٢٥٥/٢.

ويصور النبي - ﷺ - نتيجة التوكل بأسلوب يزيد لها تقريراً وإيضاحاً، وهو أسلوب التشبيه التمثيلي في قوله - ﷺ -: "لرزقتم كما ترزق الطير: تغدو خماساً، وتروح بطناً"، فمن المقرر أن التشبيه التمثيلي يستعمله النبي - ﷺ - "كوسيلة من وسائل الإيضاح التي يتذرع بها المعلم لتقرير درسه بما لا يدع للتلميذ مجالاً للنسيان، ولهذا نراه ظاهرة أسلوبية واسعة الجوانب، بعيدة الغور في تعميق المعاني، وتأثيرها في القلوب"^(١)،

(فالتمثيل يضاعف من قوة الكلام في تحريك النفوس، وتوجيه القلوب، وامتلاك الأفئدة، والسيطرة على المشاعر، واستمالة الأسماع، واسترعاء الأبصار، حتى كأن الكلام لا تتم فائدته إلا به، ولا يأخذ سبيله إلى العقول إلا بغيره منه)^(٢)

ومن هنا نراه - ﷺ - يدعو السامع إلى التأمل والمعاينة لأتمودج تتجلى حقيقة التوكل من خلاله أصدق ما تكون فعلاً، وأنجح فائدة، ألا وهو الطير، فإذا ما تأمل الإنسان حاله، كيف يعيش هذا الكائن الضعيف، ومن الذي يتولى أمر طعامه وشرابه، إن كان الإنسان ليموت فرعاً من المستقبل وعنده من الطعام والشراب ما يُبلّغه عاماً، أو أكثر، فما بال هذا الطير الذي يهيم في السماء!!!،

فإذا ما علم أن الطير يعي أن خالقه - تعالى - متكفل برزقه، ولذا فهو يسعى في طلب هذا الرزق معتمداً عليه واثقاً من تحصيله بسبب توكله المقرون بسعيه واجتهاده في طلبه، غير جذعة نفسه من مستقبل، ولا خائفة من حصول غيرها على ما قُدِّرَ لها، تؤكد عنده ضرورة الوثوق بالله - تعالى - والاعتماد عليه في كل فعل يفعله،

فالصورة التمثيلية تُبرهن للسامع على جلال فائدة التوكل، فالتوكل على الله - تعالى - حق توكله يُفَوِّضُ أمره إليه، تاركاً أمر إنجازه عليه مع أخذه بالأسباب المهيأة لديه، ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾^(٣)، فلا يدع الإنسان العمل ويدعى توكله على الله - تعالى -، ومن هنا كان التمثيل بالطير خاصة دون سائر المخلوقات الأخرى، لكون أمر معيشتها مرئياً لا يخفى على أحد، حتى لا يدعى مدع أن الطير تُرزق وهي نائمة في وكناتها، كلا فهي

(١) الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية ص ١٥٥.

(٢) ينظر: من أمثال القرآن الكريم، للأستاذ - أبو الوفا محمد درويش ص ٤، المكتبة الإسلامية

١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.

(٣) سورة الطلاق، بعض آية رقم (٣).

تسعى وتجتهد حسب طاقتها، ومن ثم يكافئها الله -تعالى- بأن ترجع آخر يومها بطونها ملأى بعدما كانت خاوية عند الصباح.

ومن مؤكدات المعنى المراد فى الحديث الشريف الإيضاح بعد الإبهام، وكذا المقابلة فى قوله -ﷺ-: "تغدو خماساً، وتروح بطناً" فنرى أن هذا الإيضاح بعد الإبهام، والتفصيل بعد الإجمال ليزيد المعنى بيانا وتوكيدا، إذ أن جملة الإجمال تدعو للسؤال عن كيفية رزق الطير، وإذا بالجواب مفصلاً لتلك كيفية بطريقة تدعو للإعجاب من حالة الطير، وكيفية طلبها للرزق، حيث يصور النبى -ﷺ- الطير متسماً بالنشاط، والدأب فى العمل، إذ تبدأ عملها مع إشراق شمس يومها، وتفرغ منه عند الغروب، فنهارها كله سعى، واجتهاد فى الطلب، ومن ثم لا يخيب هذا السعى، بل يكمل بالمكافأة المتمثلة فى حصولها على ما سعت من أجله.

ويزيد النبى -ﷺ- الأمر وضوحاً، وتأكيداً من خلال تلك المقابلة اللطيفة فى جملة التفصيل بين حالتى الطير أول اليوم، وآخره، فهى تسرح صباحاً جائعة، وترجع آخر النهار شباعاً عظيمة البطن، فما أشد أسر تلك المقابلة لعقل وقلب السامع لصدق تمثيلها، وروعة بيانها.

ومن هنا فعلى الإنسان إذن أن يأخذ الطير مثلاً يحتذيه فى كل عمل يعمل من حيث صدق التوكل على الله -تعالى- مع الاجتهاد فى السعى، وحثماً لن يضيع الله أجر من أحسن عملاً.

* * *

ومن إحسان العمل، وسلامة العقيدة أن يسير المسلم حسب المنهج الذى حدده رسول الله، ومن ذلك قوله -ﷺ-:

"لَا تَشَدُّ الرَّحَالَ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ: مَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَمَسْجِدِ هَذَا، وَمَسْجِدِ الْأَقْصَى" (١).

فمن كمال عقيدة التوحيد عند المرء أن يفرد الله -تعالى- بعبادته فلا يشرك معه غيره فى عمل يقصد به التقرب إليه، ومن هنا كان نهيه -ﷺ- فى هذا الحديث بطريق النفى عن أمور تنبأ

(١) الجامع الصحيح للترمذى. أبواب الصلاة، باب ما جاء أى المساجد أفضل رقم (٣٢٦) والرحال: جمع رحل وهو مركب للبعير والناقة. لسان العرب مادة: (رحل).

بها، وأطلع ربه عليها مما نراه، ونشاهده الآن من قصد الناس من كل حذب وصوب. للمساجد نوات الأضرحة فى شتى بقاع العالم الإسلامى، الذى انتشرت فيه هذه الظاهرة التى تُعكّر صفو التوحيد، وقد توقع العبد فى برائن الشرك، دون أن يعلم أن ما يفعله شرك!

ولذا نراه - ﷺ - يؤكد على أن القصد بالزيارة للأماكن المقدسة، وما يستلزمه ذلك من شد للرحال، وتهئية للسفر لا يكون إلا إلى ثلاثة مساجد ذكرها النبى صراحة حتى لا يقع الخلاف حولها، وزيادة فى التأكيد على أن القصد لا ينبغى أن يكون إلا إليها.

ليس هذا فحسب بل إن هذا الحديث أيضاً بمثابة "تأكيد لحرمة المساجد الثلاثة، وتعظيم لشأنها، حتى تظل على المؤمنين عزيزة مرموقة، تهفو إليها القلوب، وتكمل الرحلة. تجديداً للمعانى التى صحبتها، أليست هى الأعلام التى انبجست منها الأنوار تكشف الظلمات، وما تزال تؤدى مالا يؤدى العلماء من جذب القلوب إلى الله؟" (١).

ومن هنا يتبين لنا أهمية التوجيه النبوى فى هذا الحديث الشريف، وما استلزمه ذلك من اقترانه بمؤكدات تعمل على تقريره فى النفوس، وترسيخه فى الأذهان، ومنها:

التوكيد بأسلوب القصر بطريق النفى والاستثناء، إذ افتتح النبى - ﷺ - حديثه بنفى يقصد به النهى "وهو أبلغ من صريح النهى" (٢)، ثم عقب هذا النفى باستثناء يخصص بعد تعميم، ويفصل بعد إجمال حيث قال: "لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد"، ولولا ما لهذا الأمر من أهمية بالغة لما عرضه النبى - ﷺ - بأسلوب يغلب استعماله مع منكر الحكم، والشاك فيه وهو أسلوب القصر بطريق النفى والاستثناء، فعن ذلك يقول الإمام عبد القاهر: "وأما الخبر بالنفى والإثبات نحو: ما هذا إلا كذا، وإن هو إلا كذا، فيكون للأمر ينكره المخاطب ويشك فيه" (٣)،

وإن كان الصحابة رضى الله عنهم - وهم أول متلق لهذا القول لن يعترضوا، ولن ينكروا على نبيهم ما يأمرهم به، أو ينهاهم عنه، ولكن لعلمه - ﷺ - بما يكون عليه حال الأمة فيما بعد أكد نهيه المراد، ووثقه بما لا يدع للنفس مجالاً للإكثار، أو الشك،

(١) الحديث النبوى الشريف من الوجهة البلاغية ص ١٣٢.

(٢) تحفة الأحوذى، ١٢١/٢.

(٣) دلالات الإعجاز، ص ٣٣٢.

"فهكذا أسلوب القصر في البيان النبوي يجئ لحسم الأمور الكبرى، والقضايا الرئيسية وتأتي ألفاظ القصر كلمات معدودات لتحسم القضية، وتستقر ألفاظه في حافظة الناس وعقولهم يستشهدون بها في حياتهم العامة"^(١).

ومما يزيد الأمر تأكيداً واهتماماً، ما يوحى به سياق الحديث من عموم النهي عن السفر إلى أى موضع في الأرض غير هذه المواضع الثلاثة المذكورة، وذلك نظراً لكون الاستثناء في الحديث الشريف مفرغاً، والمستثنى منه في الاستثناء المفرغ لا بد أن يقدر بأعم العام، هذا: وإن كان "المراد بأعم العام هنا: ما يناسب المستثنى نوعاً ووصفاً كما إذا قلت: ما رأيت إلا زيدا. كان تقديره: ما رأيت رجلاً، أو واحداً إلا زيدا، لا ما رأيت شيئاً أو حيواناً إلا زيدا، فهنا تقديره: لا تشد إلى مسجد إلا إلى ثلاثة"^(٢)، أو أن المراد أنه "لا يجوز السفر إلى موضع للتبرك به، والصلاة فيه إلا إلى ثلاثة مساجد"^(٣).

فالنبي -ﷺ- "قصر الواجب من شد الرحال اهتماماً على هذه المساجد الثلاثة دون غيرها من المزارات ودور العبادة، إحياء بما لها من فضل يتأكد على المؤمنين أن يعرفوه، لما شرفها الله به من إمامة الأنبياء، ونشر دعوتهم"^(٤). فلم يشأ -ﷺ- في تفضيله لهذه المساجد (أن يذكر لفظ التفضيل الدال ظاهراً على ذلك، وإنما عبر عن المعنى تعبيراً مظللاً موحياً، فنفى شد الرحال إلى أماكن أخرى مع كونه حاصلًا ويدل نفى الحاصل مع العلم بأنه حاصل على عدم الاعتداد بحصوله، وتنزيله منزلة العدم.

ثم عقب هذا النفي بأداة الاستثناء المخرجة ما بعدها من الحكم على عموم الجنس المقدر، فأوجب له عكسه، وهو ثبوت شد الرحال إليه على الوجه الذي سبق النفي عليه وفاء بحق المقابلة)^(٥).

ومن مؤكدات المعنى المراد في الحديث الشريف التعبير بأسلوب المجاز المرسل في قوله -ﷺ-: "لا تشد الرحال" فمن خلال هذا القول يتبين لنا مدى تصعيد النبي -ﷺ- للنهي

(١) الإيجاز وخصائصه البلاغية في صحيح البخاري، د/نصر عبد العزيز حسن الكتامي، ص ١١٧، مخطوط في كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

(٢) عمدة القاري، ٢٥٣/٧.

(٣) تحفة الأحوذى ١٢٣/٢.

(٤) الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية ص ١٣٢.

(٥) ينظر: السابق ص ٢٠٦ يتصرف.

عن قصد غير المساجد الثلاثة المذكورة بالزيارة، أو التبرك، نظراً لكون النهى المراد ينصرف أولاً إلى العزم على الفعل والهمم به، "لأن التعبير بشد الرحال مسبب عن الاهتمام وصدق العزم على الارتحال إلى المكان البعيد تعبيراً بالمسبب عن السبب"^(١)، (وأبلغية المجاز المرسل تكمن في تقريره المراد في الذهن لإشعار الملزوم باللازم، وسوق القرينة إلى خصوصه، فكأنه قرر مرتين"^(٢)،

فهكذا أسلوب المجاز المرسل "يساعد على بلاغة التعبير، وجماله، وحسن وقعته في النفوس، وهو ينقل المعنى إلى مدلول جديد أكثر اتساعاً ومبالغة على ما فيه من تصميم وابتكار"^(٣).

وإذا كان شد الرحال لازماً عن النية المرادة المنهى عنها من قبيل المجاز فهذا فهم واع وجيد. وقد ذهب بعض شراح الحديث إلى اعتبار الكناية - أي (الكناية عن السفر يشد الرحال لأنه لازمه)^(٤).

ولقد تأملت كثيراً في اختيار النبي - ﷺ - لهذا التعبير بالذات (شد الرحال) فوجدت أن، هذا الأمر يتوسط أمرين كلاهما منهي عنه ومراد لمن خوطب بهذا الحديث،

ولنا أن نتصور الأمر هكذا :

١- مرحلة النية والعزم وتطلع القلب للفعل.

٢- مرحلة التجهيز والإعداد (شد الرحال)

٣- مرحلة الفعل المحترّم وهو الخروج إلى مساجد ما وتقديسها وبذل الجهد بسبب ذلك.

فأرى أن اختيار النبي - ﷺ - التعبير بشد الرحال يغني عن الأمرين الآخرين إذ هو مستلزم العزم وسبب الفعل وهو أبلغ هنا ؛ لأن تصور الرحلة كله يكمن هنا فالتقديس القلبى هنا ، والإعداد البدنى والمالى أيضا هنا وما بعد ذلك من عمل قد نتصوره عند صاحبه رحلة ترفيه لبي فيها داعى القلب.

(١) الحديث النبوى الشريف من الوجهة البلاغية ، ص ٢٦ .

(٢) ينظر: مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص ٢٧٧/٤ .

(٣) أساليب القرآن والصورة البيانية، د/محمد إبراهيم شادى ص ٣٨٦ ، ط ١ ، دار والى الإسلامية،

١٩٩٥م/٥١٤١٦ .

(٤) ينظر: تحفة الأحوذى ١٢١/٢ .

وأما عن خاتمة المطاف لمؤكدات هذا الحديث، وهي خاتمة تشوّقت النفوس إلى سماعها، وتلّهّفت إلى الوقوف عليها تصحيحاً لمسار عقيدتها، وتحديداً لما تسلكه من طرق الخير، وأعمال البر، فإذا بالنبى - ﷺ - يحدد مزارات ثلاثة أجمعت قلوب المسلمين على محبتها، وتنافس العباد فى زيارتها، وهى المسجد، الحرام، ومسجد النبى - ﷺ - والمسجد الأقصى، على ترتيبها الذى وردت به جملة الإيضاح فى قوله - ﷺ -: "مسجد الحرام، ومسجدى هذا، ومسجد الأقصى"،

فمن خلال هذا الإيضاح، والتفصيل للأماكن التى نهى النبى - ﷺ - عن شد الرحال إلى غيرها تتأكد أهمية هذه الأماكن الثلاثة، ويتضح للمرء كمال العناية بها، والاهتمام بأمرها، وإلا كان يكفى أن يقال: لا تشد الرحال إلا إلى مسجد الحرام، ومسجدى هذا، ومسجد الأقصى، دون إبهام وإيضاح بعد الإبهام كما نرى، فبهذا الأسلوب يتمكن المعنى المراد عند السامع ويثبت لديه لتلقيه له فى صورتين.

وما ميّزت هذه المساجد الثلاثة، وأولها النبى - ﷺ - عنايته واهتمامه، وحث المسلمين على تعظيمهم لها، وقصدهم إياها دون غيرها مما ابتدعه المضللون إلا لكونها مساجد الأنبياء، ولأن الأول قبلة الناس وإليه حجهم، والثانى أسس على التقوى، والثالث كان قبلة الأمم السالفة^(١)،

وبترتيبهم هذا تتبين مكانة كل مسجد، وتتأكد فضيلته على الذى يليه، وما سواه من المساجد وغيرها من المزارات الدينية.

ثم إنه - ﷺ - نراه وقد خص مسجده بالإشارة المؤكدة له حيث قال: "ومسجدى هذا" تأكيداً على موطنه، وتقريراً لموضعه الذى تُشد الرحال إليه حتى لا يقع الخلاف بعد ذلك فى تحديده.



(١) تحفة الأحوذى ١٢٢/٢، ١٢٢، ١٢٢.

المبحث الثاني

التوكيد في مقام الحديث عن الصلاة

المبحث الثاني

التوكيد في مقام الحديث عن الصلاة

الصلاة من أفضل الأعمال وأحبها إلى الله -تعالى- فهي صلة روحية بين العبد وخالقه، وهي مظهر من مظاهر الخضوع لله -تعالى- يتجدد فعله في اليوم واللييلة أكثر من مرة فهي صلة موصولة، وقربة مشهودة، يثاب فاعلها، ويأثم تاركها بل يكفر، لقوله -ﷺ- : "العَهْدُ الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر"^(١)، ومن ثم نراه -ﷺ- يُولي الصلاة عناية واهتماماً، فكثيراً ما يتحدث عنها بأسلوب مؤكد يظهر من خلاله مكانة الصلاة بين سائر العبادات، ويتقرر أمرها في أنفس السامعين، ومن ذلك قوله -ﷺ-:

أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْخَطَايَا، وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟ قَالُوا: بَلَىٰ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ "ثَلَاثًا"^(٢).

يعرض الرسول -ﷺ- على أمته ممثلة في أصحابه معرفة أمور تمحو الخطايا، وترفع الدرجات، ليستثير كوامن شوقهم، وليبعث عظيم انتباههم، وهم أشد الناس خوفاً من صغير الذنب، فضلاً عن كبيره، وأعظمهم حرصاً على الصعود في معارج الجنات، والرسول -ﷺ- يستطلع هذا الانتباه في التفاتهم وجوابهم، فيبين لهم أموراً ثلاثة يُعتقد أنها يسيرة -وهي يسيرة على من يسره الله للفلاح- تكفل تلك الغاية العليا التي يطمح إليها كل مؤمن غيور.

(١) الجامع الصحيح للترمذي. كتاب الإيمان، باب ما جاء في ترك الصلاة. رقم (٢٦٢١).

(٢) السابق. أبواب الطهارة. باب ما جاء في إسباغ الوضوء. رقم (٥٢،٥١)

ويمحو: يذهب الأثر، فالمحو لكل شئ يذهب أثره- إسباغ الوضوء: المبالغة فيه وإتمامه. لسان العرب مادنا إمحا، سبغ.

والمكاره: هي ما يكرهه الإنسان ويشق عليه - الرباط: في الأصل: الإقامة على جهاد العدو بالحرب، وارتباط الخيل وإعدادها. النهاية في غريب الحديث والأثر مادنا إكره، ربط.

وقد يكون من أمر الصحابة أنهم لم يجدوا فيما نبههم إليه جديداً، ولم يذهب بهم عنه بعيداً، فيفتر الأثر في نفوسهم، ولكن النبي - ﷺ - يرشدهم بما لا غاية فوقه من التقرير والتأكيد إلى فعل هذه الأعمال مع يسرها، ليرسخ في العقيدة، ويظل حاضراً في القلب^(١).

فنجده - ﷺ - يضمن حديثه عدة مؤكدات، تنبيهها على شرف المتحدث عنه، وحثاً على التزامه، وعدم التهاون في فعله، أو النظر إليه بعين الإقلال، وهذه المؤكدات منها:

التوكيد بـ "ألا" في قوله - ﷺ - : "ألا أدلكم"، (فألاً تدخل على الجملة خبرية كانت أو طلبية، وفائدتها المعنوية هي توكيد مضمون الجملة)^(٢)، (وفائدتها التوكيد والتحقيق نظراً لتركبها من الهمزة، ولا، وهمزة الاستفهام إذا دخلت على النفي أفادت التحقيق، نحو ﴿أليسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾^(٣)).

ولذلك يقول الزمخشري: "ولكونها في هذا المنصب من التحقيق لا تكاد تقع الجملة بعدها إلا مصدرة بنحو ما يتلقى به القسم"^(٤) وعن معاني "ألا" يقول ابن هشام: (ألاً بفتح الهمزة والتخفيف على خمسة أوجه: أحدها: أن تكون للتنبيه، فتدل على تحقق ما بعدها، وتدخل على الجملتين، والثاني: التوبيخ والإنكار، والثالث: التمني، والرابع: الاستفهام، والخامس: العرض والتحضيض. ومعناها طلب الشيء، لكن العرض طلب بلين، والتحضيض معناه طلب الشيء، بِحَسَبِ، وتختص هذه بالجملة الفعلية نحو: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ ﴿أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ﴾^(٥).

وألاً في النص النبوي الذي بين أيدينا تفيد العرض استحضاراً لنفس المخاطب وعقله بهذا القول الذي يحمل سؤالاً مشوقاً إلى ما يكون من جواب لما لأداة العرض من استنهاض قوى النفس وإثارة نشاطها،

(١) الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية ص ٩٢، ٩٣.

(٢) ينظر: شرح الرضى على الكافية ٤/٢١٤.

(٣) ينظر: مغنى اللبيب ص ٩٦ - والآية من سورة القيامة رقم (٤٠)

(٤) الكشف ٣٣/١ - وينظر: البرهان ٢٣٥/٤ - وعروس الأفراح ضمن شروح التلخيص ١/٢٢١.

(٥) ينظر: مغنى اللبيب ص ٩٥ - ٩٧، والآية الأولى من سورة النور رقم (٢٢)، والثانية من سورة التوبة رقم (١٣).

فالنبي -ﷺ- يعرض على أمته أموراً هيّنة في فعلها، عظيمة في ثوابها، إذ بها تُغفر الذنوب، وتُرفع الدرجات، وهذان الأمران من الأهمية بمكان عند المسلم، ومن ثم نراه صَدْرَ حديثه عنهما بالألّا التي تؤكد المعنى المراد، وتزيده تحقيقاً وتقريباً، وتكسب السامع تشوقاً ورغبة في الوقوف عليه والتزامه طلباً لمغفرة الذنوب، ورفع الدرجات.

ومن مؤكّدات المعنى المراد في الحديث التعبير بالأسلوب الكنائى في قوله -ﷺ-: "يمحو الله به الخطايا"، (فمحو الخطايا كناية عن غفرانها، ويحتمل محوها من كتاب الحفظ، ويكون دليلاً على غفرانها) ^(١)،

والكناية ذات أثر عظيم، ودور بالغ في إثبات المعنى، وسعته، وتفخيمه، وتوكيده تنفيذ الألفاظ جمالاً، وتكسب المعنى ديباجة وكمالاً، وتحرك النفوس إلى عملها، وتدعو القلوب إلى فهمها ^(٢).

فالنبي -ﷺ- أكد أمر مغفرة الذنوب باستخدامه أسلوباً يبالغ في إثبات المغفرة، بل يكسب السامع شعوراً بأن ذنباً واحداً مما قد اقترفه لن يُسأل عنه إن هو فعل ما أرشد إليه في هذا الحديث على وجهه اللائق به، يفهم ذلك من الكناية بالمحو عن المغفرة، وما يفيد لفظ "يمحو" من دلالة على الإزالة التامة للخطايا فلا يبقى لها أثر، ثم إن إسناد هذا المحو التام للخطايا والآثام لله -تعالى- ليزيد المعنى تحقيقاً وتقريباً، إذ أن الله -تعالى- وحده هو القادر، على التغيير والتبديل حرصاً منه -تعالى- على ما ينفع عباده ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ

وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ ^(٣) ومما يقرر المعنى المراد الإيضاح بعد الإبهام في قوله -ﷺ-: "إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة"، فنجد أن السامع لهذا الحديث بعد هذا العرض قد تآقت نفسه إلى معرفة ما يستعين به على محو خطاياهم، ورفع درجته، فهو في شوق وحنين إلى هذه المعرفة، بل إنه ليعانى ألم الانتظار - وإن قل زمنه - لهذه المعرفة، ومن ثم حينما يُعرض عليه إيضاح المبهم أولاً بهذه الكيفية يتأكد المعنى لديه، ويرسخ في ذهنه فلا ينساه أبداً.

ونظراً لما قدم به النبي -ﷺ- لهذه الأمور التي يريد من الأمة التزامها، فقد يتوهم السامع شدتها، أو صعوبة القيام بها، وإذا بجمال الإيضاح توقفه على أمور سهلة ميسورة،

(١) ينظر: تحفة الأحوذى ١/١٢٩.

(٢) الطراز، ليحيى بن حمزة العلوى، ت/ محمد عبد السلام شاهين، ١/٢٠٣، ط١، دار الكتب العلمية بيروت

١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

(٣) سورة الرعد آية رقم (٣٩).

وهى على الترتيب الوارد فى الحديث الشريف كما يلى: الأول منها: يتعلق بالتهيئة لأداء الصلاة، وهو الوضوء الذى يسبقها، (والمراد بإسباغ الوضوء على المكاره: أى على برد شديد، أو علل يتأذى معها بمس الماء، أو مع إعواز الماء، والسعى فى تحصيله، وابتياغه بالثمن الغالى ونحوه مما يشق فعله) ^(١) والثانى: يتعلق بالسعى إلى المساجد طلباً لأداء الصلاة فى جماعة، والثالث: يتعلق بالارتباط الروحى للمسلم بالصلاة فلا يكاد يفرغ من صلاة إلا وهو فى شغل بالتي تليها ينتظرها، يترقب وقت أدائها «وكلمة انتظار تدل على يقظة المؤمن وترقبه ما ينتظر، ولا يُترقب ويُنتظر إلا المهم العظيم» ^(٢)،

هذا: وفى قوله -ﷺ-: "فذلكم الرباط" نراه ﷺ وقد قصر معنى الرباط على فعل هذه الأعمال بطريق التعريف للمسند بأل الجنسية وكأنه لارتباط إلا ما كان على هذه الكيفية للأعمال المتحدث عنها، ولا اعتبار لما سوى ذلك، وإن علا شأنه وعظمت فائدته.

هذا مع اختلاف بيان معنى الرباط المراد هنا من أنه المراقبة فى ثغر من ثغور المسلمين، شُبّهت به الأعمال المذكورة تشبيهاً بليغاً من أجل المبالغة فى تحقيق معنى المشبه به للمشبه والتأكيد على ذلك لعظم أجرها ورفعة شأنها. أو أن المراد به أنه المانع من المعاصى والحاجز عنها، أو أنه الرباط المرغّب فيه والمُفضّل كما قيل: الجهاد جهاد النفس، أو أنه الرباط المتيسر والممكن فعله بالنسبة لكل مسلم.

ولقد قيل: (إن هذه الأعمال هى المراقبة الحقيقية لأنها تسد طريق الشيطان على النفس وتقهّر الهوى وتمنعها من قبول الوسوس) ^(٣) ومن ثم بالغ النبى -ﷺ- فى تقرير معنى الرباط لها من خلال هذا القصر المفيد اختصاصها به وقصره عليها.

ومما يزيد المعنى فخامة، وتأكيداً أن المسند إليه -المقصود عليه- "ذلكم" اسم إشارة يدل على التفخيم، وزيادة الميم زيادة فى تنبيه المخاطبين لإفادتها اختصاص الإشارة به إليهم ^(٤)،

والمسند -المقصود- "الرباط" جاء معرّفاً بالألف واللام "لقصد المبالغة، وذلك كقولك: زيد هو الجواد، وعمر هو الشجاع، تريد أنه الكامل، إلا أنك تخرج الكلام فى صورة توهم أن

(١) ينظر: تحفة الأحوذى ١/١٢٩.

(٢) الحديث النبوى الشريف من الوجهة البلاغية ص ٩٤.

(٣) ينظر: تحفة الأحوذى ١/١٣٠.

(٤) الحديث النبوى الشريف من الوجهة البلاغية ص ٩٣.

الجود، أو الشجاعة لم توجد إلا فيه، وذلك لأنك لم تعتد بما كان من غيره لقصوره عن أن يبلغ الكمال"^(١)، وذلك هو الحال بالنسبة للأعمال المتحدّث عنها هنا، والتي قصر النبي -ﷺ- الرباط عليها مبالغة، وتأكيداً على كمالها في هذا المعنى.

ومما يزيد المعنى المراد تأكيداً التكرير في قوله -ﷺ-: "فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ" ثلاثاً،

فنرى من خلال هذا التكرير اهتماماً بالغاً، وتأكيداً زائداً على أهمية الأعمال التي قصر النبي -ﷺ- الرباط عليها (حتى لا تتوهم المجازفة في الإخبار بهذا الخبر نظراً لما للجهاد المسلح من فضل ظاهر، قطع تكرار العبادة كل وهم، وأكد ذلك المعنى تأكيداً لا مساغ للشك بعده)^(٢).

(فالتكرار يأتى فى الكلام تأكيداً له، وتشديداً من أمره، وإنما يُفعل ذلك للدلالة على العناية بالشىء، والاهتمام به)^(٣).

(والتكرار ظاهرة من الظواهر الجميلة والأصيلة فى البلاغة العربية، وقد درسه البلاغيون، والنقاد دراسة وافية لما أحسوا فيه من جمال الأسلوب وتأكيد الكلام، وبلاغته، ولهم فيه ذوقهم الرفيع فى تذوقه وشرح أساليبه، والكشف عن أسرارهِ، وبيان آثارهِ)^(٤).

"وقد غلط من أنكر كونه من أساليب الفصاحة، ظناً أنه لا فائدة له، وليس كذلك، بل هو من محاسنها، لاسيما إذا تعلق بعبء بعض، وذلك أن عادة العرب فى خطاباتها إذا أبهمت بشئ إرادة لتحقيقه، وقرب وقوعه، أو قصدت الدعاء عليه كررته تأكيداً، وكأنها تُقيم تكراره مقام المقسم عليه...."^(٥) "فمن سنن العرب التكرير والإعادة إرادة الإبلاغ بحسب العناية بالأمر"^(٦).

(١) دلائل الإعجاز ص ١٧٩.

(٢) ينظر: الحديث النبوى الشريف من الوجهة البلاغية ص ٩٣.

(٣) ينظر: من دقائق البيان النبوى فى صيغة التلبية ص ١٩٠، بحث فى مجلة كلية اللغة العربية بآيتاي

البارود، د/ رفعت إسماعيل السودانى، العدد التاسع عشر ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٣م دار اللوتس للطباعة.

(٤) ينظر: البديع فى تذوق البديع، د/ عبد الحليم محمد شادى، ص ١٠٤، ط ١ مطبعة الشروق ١٤٢٢هـ.

(٥) البرهان ٩/٣.

(٦) المزهرة فى علوم اللغة وأنواعها، للعلامة عبد الرحمن جلال الدين السيوطى، ت/ محمد أحمد جاد المولى -

محمد أبو الفضل إبراهيم - على محمد البجاوى، ١/ ٣٢٢، ط ٣ مكتبة دار التراث القاهرة، بدون تاريخ.

وهكذا الشأن بالنسبة للخبر الوارد عنه - ﷺ - (فما كرره إلا اهتماماً وتعظيماً لشأنه) ^(١)،
 (إذ لا يقدر على الرباط المسلح من لا يُعد نفسه له بمثل هذه الأمور، فليتعلم المرابطون هذا
 النوع العظيم من الجهاد ليُحرزوا النصر، ويفوزوا بالنجاح) ^(٢).

* * *

ومما ينتظم في سلك الحث على أداء الصلاة في جماعة، والترغيب في ذلك، قوله - ﷺ -

**"إِنَّ صَلَاةَ الرَّجُلِ فِي الْجَمَاعَةِ تَزِيدُ عَلَى صَلَاتِهِ وَحْدَهُ بِخَمْسَةِ
 وَعِشْرِينَ جُزْءاً"** ^(٣)

فالنبي - ﷺ - يبين في هذا الحديث سبيلاً من سبل الخير، وطريقاً من طرق زيادة الأجر،
 ألا وهو أداء الصلاة في جماعة، فصلاة الجماعة من سنن المرسلين، وسبيل لنيل رحمة رب
 العالمين، وهي مظهر لتوحد المسلمين، يجتمعون بسببها خمس مرات في اليوم والليلة، تتلاقى
 وجوههم، وتتألف قلوبهم، وتتأكد بها أواصر المحبة فيما بينهم،

ومن أجل ذلك نراه - ﷺ - يؤكد على عظم ثواب الجماعة هنا، حثاً على التزامها، وترغيباً
 في المحافظة عليها، فيفرق بينها وبين صلاة الرجل منفرداً بخمسة وعشرين جزءاً، أو بسبع
 وعشرين درجة كما ورد في رواية أخرى بهذا الخصوص فعنه - ﷺ - أنه قال:

"صَلَاةُ الْجَمَاعَةِ تَفْضُلُ عَلَى صَلَاةِ الرَّجُلِ وَحْدَهُ بِسَبْعٍ وَعِشْرِينَ دَرَجَةً" ^(٤)

(١) ينظر: تحفة الأحوذى ١/١٣٠.

(٢) ينظر: الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية ص ٩٤.

(٣) الجامع الصحيح للترمذى. أبواب الصلاة، باب ما جاء في فضل الجماعة. رقم (٢١٦). والجزء: النصيب
 والقطعة من الشيء. النهاية في غريب الحديث مادة: [جزأ].

(٤) الجامع الصحيح للترمذى. أبواب الصلاة، باب ما جاء في فضل الجماعة. رقم (٢١٥) = ويُجمع بين هذه
 الرواية والرواية السابقة من ثلاثة أوجه: أحدها: أنه لا منافاة بينهما فذكر القليل لا ينفي الكثير، ومفهوم
 العدد باطل عند جمهور الأصوليين. والثاني: أن يكون النبي أخبر أولاً بالقليل ثم أعلمه الله - تعالى -
 بزيادة الفضل فأخبر بها. والثالث: أن الحال يختلف باختلاف أحوال المصلين، والصلاة، فيكون لبعضهم
 خمس وعشرون، ولبعضهم سبع وعشرون بحسب كمال الصلاة - ينظر: تحفة الأحوذى ١/٤٦٩ - وفتح
 الباري، ١٥٥/٢.

واهتماماً منه -ﷺ- بصلاة الجماعة، وإبرازاً لأهميتها، نراه وقد أكد حديثه السابق عنها بعدة مؤكدات منها :

التوكيد بـ "إن" في قوله : "إن صلاة الرجل" فنظراً لعظم فضل صلاة الجماعة، ورفعاً ثوابها، نراه -ﷺ- وقد صُدِّرَ حديثه عنها بـ "إن" تأكيداً لإثبات ما يريد نسبته من فضل إليها، فلقد أفاد دخول إن تقرير النسبة، وترسيخها في ذهن السامع، حتى وكأن الكلام السوارد بها قد كُرِّرَ وأعيد تنبيهاً لمعناه، وتفضيماً وتعظيماً له، فبمجرد أن تَقَرَّعَ إنَّ سَمِعَ السامع تضاعف من انتباهه. ويقظته لتلقى ما يأتي بعدها، فإذا به يُصَدِّقُ بقلبه، ويجتهد في أن تُنفِذَ جوارحه ما وُجِّهَتْ إليه من خير ونفع،

وإذا كان ﷺ قد خص صلاة الجماعة هنا بالرجال دون النساء حيث قال: "إن صلاة الرجل" فإن هذا ليؤكد ما ذهب إليه الفقهاء (من أن أفضل صلاة الرجال في الجماعة، وأفضل صلاة النساء في بيوتهن، وإن كان يجوز حضورهن الجماعة بشروط تنظم هذا الحضور) ^(١)، فالحديث جاء بالحث على فعل الأفضل للرجال توافقاً مع ما يتناسب مع طبيعة الرجل وعمله حتى لا يتخذ من كثرة الشواغل ذريعة للتكاسل عن أداء الصلاة في جماعة.

وبين قوله: ﷺ "الجماعة" وقوله: "وحده"، مطابقة تزيد من تعبئة الشعور النفسي عند السامع بفضل صلاة الجماعة والتأكيد على هذا الفضل، فالضد يظهر حسنه وتؤكد فضيلته عند مصاحبة ضده له، واقتترانه به في الذكر، وذلك على حد قول الشاعر:

وَنَذِيْمُهُمْ وَبِهِمْ عَرَفْنَا فَضْلَهُ وَبِضْدِهِمَا تَتَبَيَّنُ الْأَشْيَاءُ ^(٢)

فالطباق في الحديث الشريف يفيد تأكيد المعنى، وتقديره عند السامع، فضلاً عما يبثه في نفسه من دعوة إلى التأمل (تفتح له بسببها آفاق واسعة من الإدراك والوعي، فيثبت له الرشد من الغي، وحينئذ يوضع أمام مسئولية الاختيار) ^(٣).

(١) ينظر: الفقه على المذاهب الأربعة ٣٥٩/١ وما بعدها ط وزارة الأوقاف المصرية، ١٤١٨ هـ / ١٩٩٧ م - فقه السنة، للشيخ السيد سابق ١٧١/١ طبعة دار الفتح للإعلام العربي القاهرة، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م.

(٢) البيت لأبي الطيب المتنبي، ينظر: ديوان المتنبي بشرح العكبري، ت/ مصطفى السقا - عبد الحفيظ شلبي ٢٢/١، ط دار المعرفة بيروت.

(٣) ينظر: لمحات من هدى النبي -ﷺ- وبلاغته، د/ عبد الغنى بركة ص ٢٨، ط مؤسسة دار التعاون.

ويزاد على ذلك ما يوحى به لفظ "الجماعة" من الأتس، والألفة، والتماسك بين المسلمين، وذلك بسبب اجتماعهم لأداء الصلاة.

وما يوحى به لفظ "وحده" من الوحشة، والنفور، والتشيزم بسبب هجر الجماعة، وصلاة المرء وحده، وهذا ما يأباه الإسلام، ويَحَرِّضُ على عدم فعله، فلولا الجمع بين المتضادين هنا ما شعر السامع بالفرق الكبير بين أداء الصلاة فى جماعة، وأدائها منفرداً.

ومما يقرر فضل الجماعة وزيادة أجرها الباء الزائدة فى قوله - ﷺ - : "بخمسة وعشرين جزءاً" فنجد أن ما تقدم من تقرير لفضل صلاة الجماعة، وزيادتها فى ثوابها على صلاة المسلم وحده يبعث فى نفس السامع الشوق إلى معرفة مقدار هذه الزيادة، والوقوف على حدودها فإذا بالنبي - ﷺ - يُبَادِرُهُ بالجواب الذى يُرِيحُ نفسه ببيانه مقدار الزيادة بياناً مؤكِّداً بما لا يدع مجالاً للشك فى أمرها، وذلك بذكره مفعول الزيادة مقترناً بالباء الزائدة، (إفادة التوكيد) ^(١)، (فكل حرف زيد فى كلام العرب قائم مقام إعادة الجملة مرة أخرى، تأكيداً لمعناها، وتقريراً لها فى نفس السامع، فحروف الزيادة أو الصلّة تتغير نفس المطبوع بنقصانها، ويجد نفسه بزيادتها على معنى بخلاف ما يجدها بنقصانها، فأصل المعنى حاصل بدون الحرف الزائد دون التأكيد، وبوجوده حصل فائدة التأكيد) ^(٢) وذلك حضاً على أداء الصلاة فى الجماعة لعظيم أجرها وجزيل ثوابها.

ولقد ذكر الإمام ابن حجر أنه قد وقع الاختلاف بين روايات هذا الحديث فى مميز العدد المذكور، فأكثرها ورد بلفظ "درجة" أو حذف المميز، وبعضها جاء بلفظ "ضعفاً، أو صلاة، أو جزءاً" كما هو الحال هنا فى الرواية - موضوع الدراسة - وقال: (إن ذلك من تصرف الرواة، ويحتمل أن يكون من التفنن فى العبارة) ^(٣)

غير أنه يبدو لى أن التعليق على هذا الاختلاف بين روايات الحديث بأنه من التفنن فى العبارة، غير سديد، ولا يصح استعمال مثل هذا التعبير مع النبي - ﷺ - لما يوحى به من الاشتغال باللفظ، والسعى وراء تحسينه وتلوينه، مع أن الحسن فى كلامه - ﷺ - طبيعة،

والأولى أن يقال: إن اختلاف المميز قد يكون سببه اختلاف المواطن والأحوال التى قيل فيها هذا الحديث، أو كما قيل: إنه من تصرف الرواة.

* * *

(١) ينظر: مغنى اللبيب ص ١٤٤.

(٢) ينظر: البرهان ٧١/٣ - ٧٤ - والإتقان ١٩٦/٣.

(٣) ينظر: فتح البارى، ١٥٥/٢ - وتحفة الأحوذى، ٤٦٩/١.

وإذا كان أداء الصلاة في جماعة يزيد على أدائها منفرداً بخمس وعشرين، أو بسبع وعشرين درجة، فإن هناك صلاة من الصلوات الخمس المفروضة ليفوق أجر أدائها في جماعة كل تصور، ويجاوز ثوابها كل تخيل، ألا وهي صلاة الغداة، أو الصبح إن هي أديت بطريقة مخصوصة يبينها لنا النبي ﷺ - بقوله:

"مَنْ صَلَّى الْغَدَاةَ فِي جَمَاعَةٍ ثُمَّ قَعَدَ يَذْكُرُ اللَّهَ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ
ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ كَانَتْ لَهُ كَأَجْرِ حَجَّةٍ وَعُمْرَةٍ.

قال الراوى: قال رسول الله ﷺ - :

تَامَّةٌ، تَامَّةٌ، تَامَّةٌ" (١).

فما أسعد من يبدأ يومه بتحصيله ثواب حجة، وعمره من غير أن يفارق محل إقامته فإن النبي ﷺ - ليوجه ذوى البصائر والأبصار بهذا الحديث إلى باب واسع من أبواب الخير، يكثر نفعه، وتعظم فائدته، يتمثل هذا الباب في الحرص على أداء صلاة الصبح في جماعة، ثم الجلوس عقب الانتهاء منها فترة زمنية قصيرة يشغل المسلم فيها نفسه بذكر الله - تعالى - وتسبيحه حتى تطلع الشمس، ثم صلاة ركعتي الضحى "بعد أن ترتفع الشمس قدر رمح حتى يخرج وقت الكراهة" (٢).

ونظراً لعظم ثواب هذا العمل نرى النبي ﷺ - قد أكد: بالتنبيه في قوله - ﷺ -: "كانت له كأجر حجة وعمره" فالمراد أن مثوبة العمل المذكور تعدل مثوبة أداء حجة وعمره على السواء، وفي ذلك مبالغة في إثبات هذه المثوبة ينتج عنها تقريرها في ذهن السامع نظراً (لإلحاقها بالكامل في هذا المعنى وهو الحج والعمرة على سبيل التشبيه ترغيباً) (٣)

والتشبيه إنما يؤتى به لأغراض منها: تقرير حالة المشبه وتمكينها في نفس السامع فهو يفيد الإيضاح، والتقرير، والإيجاز، والتوكيد، والمبالغة في الإقناع والإمتاع (٤).

(١) الجامع الصحيح للترمذى. أبواب الصلاة، باب ذكر ما يستحب من الجلوس في المسجد بعد صلاة الصبح حتى تطلع الشمس رقم (٥٨٦). والغداة: صلاة الصبح. ينظر: لسان العرب مادة: (غدا).

(٢) تحفة الأحوذى ٥٠٦/٢.

(٣) ينظر: السابق نفسه.

(٤) التشبيه وسماته البلاغية، د/صباح عبيد دراز، ص ١١، مطبعة الشروق ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م.

وهكذا الحال بالنسبة لهذا الحديث فمعناه يدور حول إثبات كثرة ثواب أداء صلاة الصبح بالكيفية المذكورة، فبدلاً من أن يعبر النبي - ﷺ - عن ذلك بقوله: كان له ثواب كثير، أو عظيم، أو غير ذلك مما قد يقصر عقل السامع عن الوصول من خلاله إلى التصور المطلوب لدرجة الثواب، نراه وقد عبر تعبيراً فخماً يأخذ بعقل السامع إلى أفق رحب من المبالغة والتقرير، وذلك من خلال التشبيه بما تقرر عند السامع كما له في الثواب، وأنه الغاية القصوى فيه، وهو الحج، والعمرة.

(فالتقرير يقتضى أن يكون وجه الشبه في المشبه به أتم، وأن يكون المشبه به بوجه الشبه أشهر، وأعرف معاً، تمكيناً للمعنى في نفس السامع بسبب إظهاره فيما هو فيه أظهر وأقوى) ^(١).

فمن خلال هذا التشبيه يتمكن في نفس السامع عظم ثواب العمل المتحدث عنه، وتتأكد كثرته لديه فيشمر عن ساعد الجد، وينزع ثوب الكسل الذي طالما ارتداه، فينصب في العبادة، ويرغب إلى ربه راجياً تحصيل الثواب الذي وعد به النبي - ﷺ - في هذا الحديث.

ثم إن تقديم الجار والمجرور في قوله - ﷺ -: "كانت له" ليفيد اختصاص من يقوم بأداء العمل المذكور بثوابه فلا يشاركه فيه أحد، وفي ذلك مزيد من الترغيب في هذا الثواب، والتأكيد له.

كما أكد - ﷺ - المبالغة في تقرير الثواب المراد بالتكرير في قوله - ﷺ -: "تامة، تامة، تامة"، (ففي وصف الحج والعمرة بالتمام إشارة إلى المبالغة في ثوابهما) ^(٢) زيادة في الترغيب في العمل المذكور، (ثم إن تكرار الوصف بالتمام قد أعاده النبي - ﷺ - ثلاثاً لتأكيد المعنى وتقريره، وقد أعاد الراوى القول لئلا يتوهم أن التأكيد بالتمام وتكراره من قوله) ^(٣)، فيزداد السامع بذلك اطمئننا إلى تمام حصوله على ثواب حجة وعمرة لكون الذي أخبر بذلك وكرر الوصف بالتمام هو النبي - ﷺ -، "والتكرار من شأنه أن يعمق جذور الفكرة التي تحملها العبارة المكررة، ويمكن لها في كيان الإنسان، ويقيم منها خطراً ملحاً يتردد في صدره، ويهمس في ضميره، وقد يعلو همسه حتى يكون طرقاتاً، أو هتافاً، أو دويماً" ^(٤).

(١) ينظر: الإيضاح ٧٠/٤-٧٢- وشروح التلخيص ٣/٣٩٨-٤٠١.

(٢) ينظر: تحفة الأحوذى ٥٠٦/٢.

(٣) ينظر: السابق نفسه.

(٤) الإعجاز في دراسات السابقين، د/ عبد الكريم الخطيب، ص ٤١٤ ط ١، دار الفكر.

وفى عطف جمل الحديث على بعضها البعض بثم -خاصة- من بين أحرف العطف دلالة على ضرورة الاطمئنان فى الفعل، والتراخى والتمهل فى الانتقال من عمل إلى آخر، تناسباً مع جلال هذا الوقت، واستغراقاً فى العبادة استشعاراً لمعانى العبودية والخضوع لله -تعالى- أملاً فى رحمته، وطمعاً فى ثوابه.

* * *

وانطلاقاً من مبدأ المحافظة على الصلاة، وترغيباً فى أدائها يحدثنا النبى -ﷺ- بقوله:

**"إِنَّ اللَّهَ أَمَدَكُمْ بِصَلَاةٍ هِيَ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ، الْوُتْرُ، جَعَلَهُ
اللَّهُ لَكُمْ فِيمَا بَيْنَ صَلَاةِ الْعِشَاءِ إِلَى أَنْ يَطْلُعَ الْفَجْرُ"^(١).**

فلقد فرض الله -تعالى- على أمة الإسلام خمس صلوات فى اليوم والليلة هى بمثابة حلقة الوصل بينهم وبينه -تعالى- تقربهم منه كلما هموا أن يبتعدوا استجابة لداعى الشر، ولمزيد من الأجر، والقرب منه -سبحانه- سن النبى -ﷺ- سنناً من جنس الفرائض تهيئة للوصول إلى عفو الله ورحمته، ولتكون جبراً لما عسى أن يكون قد وقع فى الفرائض من نقص، أو خلل،

ومن هذه السنن صلاة الوتر التى هى بمثابة المنحة من الله -تعالى- لأمة الإسلام، لعظيم ثوابها، ورفع منزلتها، فهى كما يقول الإمام الغزالى: "أفضل سنن الانفراد"^(٢) أى التى يؤديها المسلم وحده فى غير جماعة، ونظراً لهذا الفضل، وتلك المنزلة نرى النبى -ﷺ- قد أكد حديثه عنها بعدة مؤكدات منها بـ "إِنَّ" فى قوله -ﷺ-: "إِنَّ اللَّهَ أَمَدَكُمْ" فنرى من خلال هذا التعبير عناية، واهتماماً منه -ﷺ- بالخبر الذى يلقيه على أمته، ومن ثم ابتدأه بـ "إِنَّ" تمكيناً وتقريراً له فى نفوس السامعين، فالكلام قد يؤكد ابتداء تنبيهها على أهميته، أو دفعاً لشك قد

(١) الجامع الصحيح للترمذى - أبواب الصلاة. باب ما جاء فى فضل الوتر رقم (٤٥٢).

وأمدكم: الإمداد: أن يرسل الرجل للرجل مدداً بعينه، أى زادكم - وحمر النعم: النعم: الإبل خاصة، والعرب تقول: خير الإبل حمراً - الوتر: صلاة الوتر. هى أن يصلى الرجل مثنى مثنى ثم يصلى فى آخرها ركعة مفردة، أو يضيفها إلى ما قبلها من الركعات. ينظر: لسان العرب، المواد: | مدد، نعم، حمر، وتر |.

(٢) إحياء علوم الدين، لأبى حامد الغزالى، ت/ أبو الفضل عبد الرحيم العراقى، ١/ ٢٢٧، ط ١ دار الريان للتراث، القاهرة، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

يتطرق إليه، أو إنكار منكر له، ولولا ما للوتر من أهمية، لما لها من ثواب غير محدود قد يساور نفس بعض السامعين الشك فيه أو جحده ما أكد النبي - ﷺ - خبرها.

ولفظ المد فيه تحديد لماهية هذه الصلاة بأنها زائدة على الأصول الخمسة المفروضة، وفي التعبير بأمَدّ دون مدّ إشارة إلى أن الممدود به أمر محبوب يجلب الخير والنفع، "فأكثر ما جاء الإمداد - أى أمد ومصدره - فى المحبوب، والمد فى المكروه" (١)،

ولا يخفى ما لإسناد الفعل "أمد" إلى الله - تعالى - من إشعار بمزيد رحمة الله بعبادة، مع المبالغة فى التأكيد على تحقق ثواب الوتر.

كما أكد ﷺ المعنى المراد بالباء الزائدة فى قوله - ﷺ -: "بصلاة" فنجد فى هذا القول تحديداً لما أمد الله - تعالى - به عباده المسلمين مع التأكيد عليه، فزيادة الباء فى المفعول به "صلاة" تكسبه تمكيناً وتقريراً لما لها من جرس، ووقع يجعل ما دخلت عليه أكثر تعلقاً بالذهن، وحضوراً فى القلب.

ثم إن تنكير لفظ "صلاة" يشعر بعظمة هذه الصلاة، ورفع شأنها، واختصاصها بمزيد من الفضل من بين سائر الصلوات الأخرى، فهى صلاة مميزة فى ثوابها، وفى هيأتها فهى وتر، والله - تعالى - وتر يحب الوتر.

وفى قوله - ﷺ -: "هى خير لكم من حمر النعم" توكيد بالكناية (فهذا القول من قبيل إضافة الصفة إلى الموصوف، وإنما قال ذلك ترغيباً للعرب فى صلاة الوتر لأن حمر النعم أعز الأموال عندهم، فكانت كناية عن أنها خير من الدنيا كلها لأنها زخيرة الآخرة التى هى خير وأبقى) (٢)،

فما أدل على كمال خيرية الوتر من هذه الكناية البليغة البالغة الغاية القصوى، فى التعبير عن كمال المكنى عنه، فالتصوير الكنائى قد أكسب المعنى تأكيداً وترسيخاً فى ذهن السامع لأن الشئ الذى يفوق فى خيريته خيرية حمر النعم ليدعو من يسمع عنه إلى البحث عن أسرار خيريته، وتعاهده طلباً لهذه الخيرية.

(١) ينظر: المفردات فى غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، ت/ محمد سيد كيلاني، مادة: (مد) الطبعة الأخيرة، مطبعة الحلبي، القاهرة ١٣٨١هـ / ١٩٦١م - ولسان العرب مادة: (مدد).

(٢) ينظر: تحفة الأحوذى ٣٠٣/٢.

ولا يخفى ما فى تعقيب المسند إليه "صلاة" بضمير الفصل "هى" من إفادة اختصاص هذه الصلاة بالخيرية المذكورة لا تتعداها إلى غيرها مبالغة فى ثبوتها لها.

(فتعقيب المسند إليه بضمير الفصل من فوائده تخصيص المسند إليه بالمسند، أى قصر المسند على المسند إليه) ^(١). وفى قوله -ﷺ- : "الوتر" بعد الكلام السابق له تأكيد بطريق الإيضاح بعد الإبهام إذ به يتمكن المعنى المراد فى ذهن السامع فضل تمكن، ويصير معه وكأنه قد عثر على ضالة طال نشدانه إياها، وعند الظفر بها يشتد حرصه عليها فلا يدعها تفوته أبداً، وهذا ما يدعو إليه الحديث الشريف.

ويختتم النبى -ﷺ- الحديث بتحديد وقت صلاة الوتر، إتماماً للفائدة المرجوة، وتوضيحاً حتى لا يقع الخلاف بعد ذلك فى تحديد وقتها،

ونرى أنه -ﷺ- قد أتى بلفظ الجلالة بعد الضمير الدال عليه فقال: "جعله الله لكم" تمكيناً للمسند إليه فى ذهن السامع، ودلالة على اختصاص الجعل المذكور به وحده -سبحانه- إشعاراً برفعة شأن صلاة الوتر، وإعلاء لمكانتها فى نفس كل سامع.

وفى التعبير بالجار والمجرور "لكم" مع تقدم ما يدل عليه فى قوله: "أمدكم"، و "خير لكم" تأكيد على أن صلاة الوتر مما اختص الله -تعالى- به هذه الأمة تكريماً وتشريفاً لها، وطلباً لزيادة أجرها وثوابها.

وفى اختيار الوقت المذكور فى قوله -ﷺ-: "فيما بين صلاة العشاء إلى أن يطلع الفجر" ليكون آخر عمل المسلم فى كل ليلة صلاة ترمز إلى وحدانية الله -تعالى-، وتزكى فى نفسه انفراده -تعالى- بالالوهية والربوبية.

* * *

(١) ينظر: الإيضاح ٥٠، ٤٩/٢ - وشروح التلخيص ٣٨٦/١ - ٣٨٨.

المبحث الثالث

التوكيد في مقام الحديث عن الزكاة

المبحث الثالث

التوكيد في مقام الحديث عن الزكاة

الزكاة هي الركن الثالث من أركان الإسلام، ووسيلة من وسائل القرب من الله -تعالى- ونيل رضاه، وهي مظهر من مظاهر التواصل والتعاون بين أفراد المجتمع الإسلامي، تبعث الود بينهم، وتنزع الحقد والحسد من نفوسهم، فالغنى يصل الفقير مما أعطاه الله -تعالى- فيرضى ربه، ويخطب ود الفقير بقليل لا ينقص ماله، بل يكسبه البركة والنماء ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾^(١). والزكاة طهرة لصاحبها من دنس البخل والطمع فما سميت بهذا الاسم إلا لما فيها من تزكية وتطهير للنفس، قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾^(٢). ويقال: تزكى بمعنى: تصدق^(٣).

ولما في الزكاة، أو التصدق عامة من إعطاء وبذل لما يفنى الإنسان عمره في طلبه وهو المال. نرى النبي -ﷺ- يرغب النفوس في التصدق، ويدعوها إليه بأسلوب يجعلها تتسابق فيه، وتحرص عليه.

فعنه -ﷺ- أنه قال:

"مَا تَصَدَّقَ أَحَدٌ بِصَدَقَةٍ مِنْ طَيِّبٍ، وَلَا يَقْبَلُ اللَّهُ إِلَّا الطَّيِّبَ إِلَّا أَخَذَهَا الرَّحْمَنُ بِيَمِينِهِ، وَإِنْ كَانَتْ تَمْرَةً تَرَبُّو فِي كَفِّ الرَّحْمَنِ حَتَّى تَكُونَ أَعْظَمَ مِنَ الْجَبَلِ كَمَا يُرَبِّي أَحَدَكُمْ قُلُوءَهُ، أَوْ فَصِيلَهُ"^(٤)

فالنبي -ﷺ- يدعو المسلمين في هذا الحديث إلى التصدق من طيب كسبهم، ويحثهم على ذلك ويجذبهم إليه بترغيبهم في عاقبة الصدقة دون تفرقة بين كون هذه الصدقة معينة

(١) سورة سبأ، آية رقم (٣٩).

(٢) سورة التوبة، آية رقم (١٠٣).

(٣) ينظر: لسان العرب مادة: (زكا).

(٤) الجامع الصحيح للترمذي. كتاب الزكاة، باب ما جاء في فضل الصدقة، رقم (٦٦١).

والقلو: المهر الصغير، وقيل: هو الفطيم من أولاد ذوات الحافر. والفصيل: هو ما فصل عن اللبن من أولاد الإبل، فأكثر ما يطلق في الإبل، وقد يقال في البقر. النهاية في غريب الحديث والأثر، مادتا إفلا، وفصل.

وهى المفروضة، أو غير معينة وهى التطوع، فالحث والترغيب هنا يشمل الأمرين معاً، وأسلوب الحديث الشريف كما نرى يكسب المعنى وضوحاً وجلاءً فضلاً عن تأكيده وتقديره تقريراً لا تطلب النفس بعده مزيداً، وبيان ذلك:

أن النبي -ﷺ- قد بادر السامع هنا بأسلوب قصر بطريق النفي والاستثناء فى قوله: "ما تصدق أحد بصدقة من طيب ولا يقبل الله إلا الطيب إلا أخذها الرحمن بيمينه" وذلك تقريراً لحقيقة يريد لها أن تثبت، وترسخ فى نفوس السامعين، هذه الحقيقة هى حسن القبول والتلقى من الله -تعالى- لصدقة العبد، ووقوعها منه -سبحانه- موقع الرضا،

وتصعيداً للتأكيد على حسن القبول من الله -تعالى- لصدقة العبد كنى النبي -ﷺ- عن ذلك بقوله: "أخذها الرحمن بيمينه"، (وتخصيص التلقى للصدقة باليمين بطريق الكناية يراد منه تثبيت المعانى المعقولة فى الأذهان، وتحقيقها فى النفوس تحقيق المحسوسات حتى لا يتشكك المرء فى القبول كما لا يتشكك من عاين التلقى للشئ بيمينه) ^(١).

فالتلقى باليمين يحقق القبول ويؤكدده، ويعظم المتلقى ويشرفه، إذ الشئ الذى يرتضى، ويعز يتلقى باليمين ويؤخذ بها،

(وفى استعمال اليمين أيضاً مشابهة سبيلها الاستعارة التصريحية، إذ استعير ذكر اليمين للقبول والرضا، وذلك بتشبيه قبول الصدقات بقبول من أهدى إليه شئ فأخذه بيده قابلاً له) ^(٢).

فكل ما جاء فى القرآن والحديث من إضافة اليد والأيدى، واليمين وغير ذلك من أسماء الجوارح إلى الله تعالى، إنما هو على سبيل المجاز والاستعارة والله منزّه عن التشبيه والتجسيم ^(٣).

وبعد: فهذا القبول للصدقة، والرضا بها قد مهد له النبي -ﷺ- بما يتلاءم مع التأكيد الذى أحيط به، وذلك بتأكيد الحث على التصديق بزيادة الباء فى لفظ "صدقة" الواقع مفعولاً به فقال: "بصدقة" ليؤدى هذا الحرف الزائد دوراً منوطاً به وهو التقرير لطلب الصدقة، والتأكيد عليه.

(١) ينظر: تحفة الأحوذى ٦٨/٣.

(٢) ينظر: سنن النسائى بشرح الحافظ جلال الدين السيوطى، وحاشية الإمام السندى، ٥٧/٥، ط دار الريان للتراث ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

(٣) النهاية فى غريب الحديث والأثر، مادة: [يمن] - وينظر: مشكل الحديث وبيانه، للإمام الحافظ أبى بكر بن فورك/ ت/ موسى محمد على، ص ٥٧، مطبعة حسان، القاهرة، بدون تاريخ، أو رقم طبع.

ونظرا لتأكيد لفظ "صدقة" وما يشعر به هذا التأكيد من إفادة الشمول والعموم لجنس الصدقة دون نظر إلى مصدرها أمن حلال هي أم من حرام، نراه - ﷺ - قد أتبع هذه النكرة بوصف يخصصها، ويحدد ماهيتها فقال: "من كسب طيب" توضيحا للمقصود، وتحقيقا له.

ولا يقتصر الأمر على وصف النكرة بـ"شبه الجملة"، بل يزيده النبي - ﷺ - وضوحا وتأكيدا ببيانه علة الوصف بقوله: "ولا يقبل الله إلا الطيب" معترضا بهذا القول بين الشرط المقدر وجزائه تأكيدا على أهمية طيب الصدقة، وحل مصدرها طلبا لقبولها.

وبعد هذا التوضيح للصدقة من الكسب الطيب، وبيان منزلتها، ودرجة قبولها نرى النبي - ﷺ - يواصل ترغيبه في التصديق، وحثه على البذل والعطاء ولو بالقليل فربما كان القليل سببا في خير كثير لا يعلم مداه إلا الله - تعالى - ومن هنا مثل النبي - ﷺ - للقليل الذي ينمو ويعظم ببركة القبول والرضا بالتمرة فقال: "وإن كانت ثمرة تربو في كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل" (وفي ذلك كناية عن تضعيف أجر الصدقة بالتربية) ^(١)، ولقد ميز النبي - ﷺ - هذه التربية بكونها في كف الرحمن - عز وجل - وما لذلك من أثر كبير في التأكيد والتقرير لحقيقة التضعيف لأجر الصدقة.

ولوضع الظاهر موضع الضمير في قوله - ﷺ -: "في كف الرحمن" أثر أيضا في زيادة تأكيد المعنى المراد وتقريره، وذلك بتمكين المسند إليه في ذهن السامع (نظرا لكون المضمّر لا يخلو عن إبهام في الدلالة بخلاف المظهر فإنه أدل على التمكن لاسيما إذا كان علما لأنه قاطع للاشتراك من أصله والمقام يقتضى هذا التمكن تعظيما للمسند إليه وإفراده بالحكم) ^(٢).

وهنا لا يترك النبي - ﷺ - السامع لعقله وحده في تصور حدود الثواب على الصدقة التي تماثل ثمرة قلة وضالة، فمهما تصور الإنسان ثوابها فلن يوصله إلى مثل ما أوصله النبي - ﷺ - بقوله: "حتى تكون أعظم من الجبل" فبهذا التقدير العظيم للصدقة اليسيرة تزداد النفوس رغبة في البذل والعطاء.

ولتقريب الصورة وتوضيحها يضرب النبي - ﷺ - لهذا التضعيف مثلا من واقع بيئة المتلقى الأول لهذا الحديث قائلا: "كما يربى أحدكم فله أو فصيله" وبذلك يتأكد المعنى المراد تأكيدا لا مزيد فوقه لما في هذا التمثيل من إبراز للأمر المعنوي في صورة محسوسة يألفها السامع ويعاينها.

(١) ينظر، سنن النسائي بشرح السيوطي، ٥٧/٥.

(٢) ينظر، مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص ٤٥٧/١.

(وفى اختيار الممثل به دون غيره لكونه يزيد زيادة بيّنه لا تخفى على أحد) (١)، وفى إضافته إلى ضمير المخاطب بيان وتأكيد على مزيد الاهتمام بأمر الصدقة وإنائها كما يحرص صاحب الفلو، أو الفصيل على تنميته ورعايته حرصاً لا يتحقق وجوده فى غير صاحب الشئ نفسه.

* * *

ومن مظاهر الترغيب فى التصدق، والدعوة إلى إخراج حق الفقير من مال الله الذى أودعه بعض عباده، التقليل فى المقدار الواجب إخراجة أخذاً للنفوس برفق عند انتزاع المال منها، وهو من أحب الأشياء إليها إن لم يكن أحبها على الإطلاق عند البعض، وتتضح لنا قلة المقدار الواجب إخراجة من قول النبى ﷺ :

"فِيمَا سَقَتِ السَّمَاءُ وَالْعَيُونُ الْعُشْرُ، وَفِيهَا سَقَى بِالنُّضْحِ نِصْفُ الْعُشْرِ" (٢).

فالدین الإسلامی دین سماحة و یسر لا یعرف إلى العنت أو القهر سبیلاً مع أى من فئات المجتمع، فرحمة الإسلام تشمل الجميع، وهذا الحديث مثال يؤكد شمول رحمة الإسلام، وعدم اختصاصها بفئات معينة فى المجتمع، فكما شملت رحمة الله - تعالى - الفقير بأن أوجبت له حقاً فى مال الغنى، شملت أيضاً الغنى بتحديد هذا الحق وتيسيره كي تكون نفسه راضية عند إخراجة، راغبة فى الزيادة عليه، ومع قلة الحق الواجب، أداؤه فى هذا الحديث نرى النبى ﷺ قد أكدّه بأكثر من مؤكّد تقريراً وتثبيتاً له حتى لا تتكاسل النفس عن أدائه، أو تتهاون فيه.

فلقد تناول ﷺ هنا نوعاً من أنواع المال، وهو الزروع والثمار المكنى عنها بالسقى بالطرق الموضحة فى الحديث، مبيناً الحق الذى أوجبه الله - تعالى - فيها بأنه إما العشر، أو نصف العشر، وأكد على ذلك أولاً: بأسلوب القصر بطريق التقديم فقال: "فِيمَا سَقَتِ السَّمَاءُ وَالْعَيُونُ الْعُشْرُ، وَفِيمَا سَقَى بِالنُّضْحِ نِصْفُ الْعُشْرِ" مقدماً الجار والمجرور المتعلق بالخبر المحذوف على المبتدأ فى جملة الحديث لفتاً لأنظار السامعين إلى المعنى المراد إعلامهم به، لينتج عن ذلك تقررهم لديهم، ورسوخه فى أذهانهم.

(١) ينظر: سنن النسائى بشرح السيوطى، ٥٨/٥.

(٢) الجامع الصحيح للترمذى، كتاب الزكاة، باب ما جاء فى الصدقة فيما يسقى بالأنهار وغيرها. رقم (٦٣٩). والعيون: جمع عين وهى التى يخرج منها الماء - والعشر: جزء من العشرة - لسان العرب مادناً: [عين - عشر] - والنضح: المراد به الدوالى، والاستقاء، والنواضح: الإبل التى يستقى عليها ينظر: النهاية فى غريب الحديث والأثر مادة [نضح]

"فالأديب عندما يقدم شيئاً هو بالقواعد الأسلوبية النمطية مؤخراً يكون - بالقطع - قد لفت الأنظار لفتاً قوياً لرؤية ترتيب معانيه وتناسقها"^(١). فالتقديم كما ذكر الإمام عبد القاهر: "باب كثير الفوائد، جم المحاسن، واسع التصرف بعيد الغاية، لا يزال يفتقر لك عن بديعة، ويفضى بك إلى لطيفة"^(٢).

والتقديم فى الحديث الشريف ينبئ عن اهتمام كبير، وعناية زائدة بالسبب فى تحديد قيمة الزكاة عُشراً كانت، أو نصف عُشر ليزداد شعور السامع بالفرق بين الحالتين، وتتأكد عنده سماحة الإسلام ورحمته.

وفى إسناد السقى لكل من [السماء ، والعيون ، والنضح] مجاز عقلى علاقته السببية وفى ذلك مزيد اهتمام بالسبب وتوجيه لأنظار السامعين إليه لكونه الأساس فى تحديد القدر المستحق إخراج من زكاة الزرع.

كما أن فى التعبير عن أحد شقى السبب فى إحقاق العُشر بالسماء مجاز مرسل علاقته المحلية (حيث ذكر النبى ﷺ المحل وهو السماء، وأراد الحال وهو المطر وما ينتج عنه من سيول وأنهار)^(٣). ففى التعبير بلفظ السماء تفخيم ومبالغة ينتج عنهما التأكيد على اليسر وانخفاض مؤنة الزرع الواجب فيه الزكاة، ومن ثم زادت قيمة المخرج منه قليلاً لعدم الحاجة فى سقيه إلى آلة، أو كدّ أو تعب من صاحبه وبذكر المقابل لهذه الحالة يقف الإنسان بنفسه على سماحة الإسلام ويستشعر رحمته وعظمته بتخفيفه قيمة الخارج من الزروع والثمار إلى نصف العشر نظراً لارتفاع مؤنة الزراعة، عند حاجة الزرع فى سقيه إلى آلة، وما يلاقيه الزراع بسبب ذلك من مشقة وتعب، أكد النبى ﷺ حصولهما بزيادة الباء فى قوله "بالنضح" لتشعر الباء الزائدة بتأكيد السبب فى انخفاض القيمة الخراجية إلى نصف العشر قطعاً للطريق على اعتراض المعترضين، وريب المرتابين،

وتأكيداً منه ﷺ على تحديد القيمة المخرجة فى هذه الحالة نراه قد وضع الاسم الظاهر موضع الضمير فقال: " نصف العشر " بدلا من (نصفه) اعتماداً على تقدم ما يرجع إليه

(١) بلاغة القصر، د/ عبد العزيز أبو سريع يس، ص ١٦٢، مطبعة السعادة ، القاهرة، ط ١، ١٩٨٦هـ/١٤٠٧م.

(٢) دلائل الإعجاز ص ١٠٦.

(٣) ينظر تحفة الأحوذى ٤٠/٣ .

الضمير، وذلك تقريراً للحقوق، وتأكيداً على حدودها، وتوضيحاً أكثر حتى لا يلتبس الأمر على السامع فيخطأ بالزيادة على القدر المراد إخراجاً دون قصد لذلك، أو النقص عنه لجهله بحدده، على ما أحدثه وضع الظاهر موضع الضمير من توافق بين فاصلتي الحديث أكسب ألفاظه تناغماً وجرساً معيناً جعلها أكثر تعلقاً ورسوخاً في الذهن (فالسجع المطبوع يزيد في الإفصاح عن المعاني والمشاعر، ويوسع مجال الضوء في نقل الخواطر فتظهر ساطعة بإيحائها، ووضيئة بألوانها) ^(١).

ويصف العقاد سجع النبي ﷺ بقوله: "ومذهبه في هذه الحلية العظيمة مذهبه في كل حلية تليق بالرجل فحولة في القول، وفحولة في الزينة، فسجعه ﷺ كحلية الذهب التي يليق بالرجل أن يتحلى بها ولا مزيد" ^(٢).

* * *

ومما ينتظم في سلك الحث على التصديق والدعوة إليه مع بيان فضل المعطى ورفعته شأنه بالنسبة للسائل قوله ﷺ:

"لَأنَّ يَغْدُو أَحَدَكُمْ فَيَحْتَطِبُ عَلَى ظَهْرِهِ فَيَتَصَدَّقُ مِنْهُ فَيَسْتَعْنِي بِهِ عَنِ النَّاسِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ رَجُلًا أَعْطَاهُ أَوْ مَنَعَهُ ذَلِكَ، فَإِنَّ الْيَدَ الْعُلْيَا أَفْضَلُ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى، وَأَبْدَأُ بِمَنْ تَعُولُ" ^(٣).

(ففي هذا الحديث يريد النبي ﷺ من المؤمن أن يكون عزيز النفس أبى القلب كاسباً، ولا يريد به فارغاً عالة يسأل الناس أعطوه، أو منعوه، ومع هذا نراه كثيراً ما يحدث على الصدقة،

(١) ينظر: البيان القرآني، د/ محمد رجب البيومي، ص ١٥٤، طبعة مجمع البحوث الإسلامية ١٣٩١هـ/١٩٧١م.

(٢) عبقرية محمد، للعقاد، ص ٩٩، طبعة الهيئة العامة للكتاب.

(٣) الجامع الصحيح للترمذي، كتاب الزكاة، باب ما جاء في النهي عن المسألة، رقم (٦٨٠) ويغدو: الغدو هو السير أول النهار نقيض الرواح، النهاية في غريب الحديث والأثر مادة (غدا).

ويحتطب: أي يجمع الحطب، لسان العرب مادة: (حطب). العُلْيَا، والسُّفْلَى: العليا: المتعفة، والسُّفْلَى: السائلة، وقيل: العليا: المعطية، والسُّفْلَى: الآخذة، وقيل: السفلى: المانعة وتعول: أي من تمون وتلزمك نفقته من عيالك، فإن فضل شيء فليكن للأجانب، النهاية في غريب الحديث والأثر مادتا (علا - عول).

ويحض على العطاء، ويبين مضاعفة الجزاء عند الله للمتصدقين، ويضرب لذلك الأمثال، بل يجعل من العطاء فرضاً مفروضاً^(١).

ونظراً لأهمية المعنى الذى يقصده النبى ﷺ هنا نراه قد عرضه فى أسلوب يكسبه تحقيقاً وتقريباً حتى يلتزم سامعه بما يوجّه إليه فسيعد بعزة نفسه وإبائها، ويكون أهلاً لنشواب الله وفضله.

يتبين لنا ذلك من خلال ابتدائه ﷺ ألفاظ الحديث باللام الداخلة على أن المصدرية فى قوله: "لأن" إيداناً بقسم مقدر، وتوطئة له تأكيداً لمضمون الخبر، ولفناً للأنظار إلى أهميته، "فاللام تأتى مع أن توطئة للقسم، وإنذاراً به"^(٢).

وبعد هذا التصدير يستطرد النبى ﷺ فى عرض ما يقصد إليه من خلال هذا الحديث قائلاً: "يغدو أحدكم فيحتطب على ظهره فيتصدق منه، فيستغنى به عن الناس خير له من أن يسأل رجلاً أعطاه أو منعه ذلك"، فيجد السامع فى هذا القول إرشاداً إلى سبيل عزة نفسه، ودعوة إلى العمل بمقتضيات هذه العزة، والأخذ بأسبابها، ومنها العمل رجاء الكسب نتيجة للجهد، وتجنباً للدناءة والابتذال بسبب السؤال، مادام قادراً على العمل، وليس هناك ما يعوقه عنه.

وحتى لا يحبس الإنسان نفسه على عمل بعينه، إن توفر له قام به، وإن لم يتوفر له لجأ إلى السؤال، نرى النبى ﷺ قد مثّل للعمل المؤدى إلى الاستغناء، وعدم السؤال بأقل الأعمال مؤنة، وأكثرها تلاوفاً مع غالب الناس، هذا العمل هو الاحتطاب: أى جمع الحطب، وبيعه، والانتفاع بثمنه.

فهذا العمل يمكن لأغلب الناس القيام به لعدم حاجته إلى حرفة، وقلة مؤن القيام به فلا يحتاج أكثر من آلة القطع، والحبل، وقليل من الجهد، يظهر ذلك من قوله -ﷺ- على ظهره فلا حاجة حينئذٍ إلى ظهر بغير أو غيره من الحيوانات المساعدة، وإن كان هذا العمل يوافق بيانات معينة فليبحث الناس عن أعمال توافق متطلبات أحوالهم يمكنهم القيام بها، وسيجدون -

(١) ينظر: الحديث النبوى الشريف من الوجهة البلاغية ص ١٩٥، ١٩٦.

(٢) معانى الحروف، لأبى الحسن على بن عيسى الرمانى، ت، د/ عبد الفتاح إسماعيل شلبى، ص ٥٤، طبعة دار نهضة مصر - الفجالة، القاهرة.

حتماً — أعمالاً مشابهة لهذا العمل الممثل به فى عدم حاجتها إلى حرفة، مع قلة مؤنة القيام بها. فلقد قامت دول على معنى هذا الحديث فاندعت عندهم البطالة وريحوا، بينما نأى عن معناه كثير من شباب أمتنا فشاعت بينهم البطالة وانعدم الكسب وعُطّلت طاقاتهم أو صرفت فى غير مفيد.

ومع قلة الكسب الذى ينتج عن العمل الممثل به هنا نراه ﷺ قد أعقبه بنتيجتين: إحداهما: التصديق منه، والأخرى: الاستغناء به، وفى ذلك تأكيد على أهمية التصديق، وحث زائد عليه، حيث لم يكتفِ النبى ﷺ بطلبه من عامل لمثل هذا العمل المتواضع، بل قدمه على أمر استغنائه به عن الناس مع أهمية هذا الأمر وضرورته،

ولا يخفى ما فى اختيار الفاء — خاصة — للعطف بين تلك الجمل السابقة من إشعار بالفورية مع ترتب الأعمال المذكورة على بعضها البعض، فالغدو والتبكير ينتج عنه السعى والعمل لا الكسل، والعمل ينتج عنه سعة اليد ووجود المال، وينتج عن ذلك البذل والعطاء عند سماحة النفس وكرمها، ومن يعطى — حتماً — سيوجد معه ما يُغنيه عن السؤال، وإلا فلماذا تصدق إذن؟

وفى إسناد كل من التصديق والاستغناء إلى الضميرين فى (منه، به) العائدين على العمل المذكور (الاحتطاب) مجاز عقلى إذ أنه سبب فى الاستغناء والتصديق وفى هذا الإسناد المجازى تأكيد وتقرير لأهمية السبب المذكور.

وربما يسأل السامع نفسه عن السر فى هذا التوجيه المؤكّد طلبه؟، فإذا ما تأمل قليلاً وجد الجواب فى قوله ﷺ: "خير له من أن يسأل رجلاً أعطاه، أو منعه ذلك" فيتقرر المعنى المراد بدفع الشك عنه، وقطع الاستشراف النفسى من أن يطول، وذلك من خلال أسلوب الفصل لشبه كمال الاتصال.

وزيادة فى التأكيد والتوضيح لمعنى الجواب يتبع النبى ﷺ القول السابق بقوله: "فإن اليد العليا خير من اليد السفلى"، (وفى ذلك تصوير لحال المعطى والآخذ، فبدلاً من امتدة للسؤال دليله ضارعة، منتظرة، نازلة، محتشمة، وبدلاً من ذاهبة بالعطاء عزيزة عائرة مرضية عالية منسحقة.

وليس المقصود حقيقة اليد، إذ لا معنى لمدح يد، وذم أخرى، وإنما الممدوح والمذموم هو صاحب اليد. فالتعبير باليد هنا تعبير مجازى سبيله المجاز المرسل لعلاقة الجزئية. "وهو

أسلوب تصويرى يفيد المعانى تقريراً ويزيدها تأكيداً فضلاً عن الإيجاز، وإعطاء المضمون فى ثوب خيالى ضاف^(١). ومما يعزز من تأكيد الصورة المجازية، ويحدد الهدف منها، سبقها بأن المؤكدة التى ترسخ فى ذهن السامع فضل المعطى على السائل.

وفى النهاية يوجه النبى ﷺ السامع، ويرشده إلى الطريقة المثلى فى الإنفاق من كسبه بقوله: "وابدأ بمن تعول" مقررأ بذلك البدء بالأولى.

وبعد فلا يخفى ما للمطابقة فى هذا الحديث بين قوله ﷺ "فيستغنى، ويسأل" و "أعطاء، أو منعه" و "الغيا، والسفلى" من أثر جليل فى عمق الفكرة المقصودة، وترسيخها فى ذهن السامع، باستحضار صورة النقيضين أمام العين ثم الترجيح بينهما توصلأ إلى الغاية المقصودة.



(١) ينظر: الحديث النبوى الشريف من الوجهة البلاغية ص ١٩٥-١٩٦.

المبحث الرابع

التوكيد في مقام الحديث عن الرسوم

المبحث الرابع

التوكيد في مقام الحديث عن الصوم

الصوم هو الركن الرابع من أركان الإسلام، وهو عبادة تركية إذ به يترك الإنسان طعامه، وشرابه، وشهوته تقرباً إلى الله، وتوسلاً إليه لنيل رضاه، "فإن طالب القرب من الله - تعالى - والراغب في الخطوة لدى مولاه، والمتوسل إليه بالإيمان، وصالح الأعمال يرشد إلى الصيام، فإنه خير وسيلة إلى ذلك".^(١) لأنه من أحب الأعمال إلى الله - تعالى - ومن ثم أخفى ثوابه، وجعل علم مقداره موكولاً إليه وحده، ترغيباً وتشويقاً للنفس في تحصيله، وفي ذلك يقول النبي ﷺ :

"إِنَّ رَبَّكُمْ يَقُولُ: كُلُّ حَسَنَةٍ بَعَثَ أَمثالُهَا إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ، وَالصَّوْمُ لِي وَأَنَا أَجْزَى بِهِ، الصَّوْمُ جُنَّةٌ مِنَ النَّارِ، وَلِخُلُوفٍ فِيمَ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ، وَإِنْ جَهِلَ عَلَى أَحَدِكُمْ جَاهِلٌ، وَهُوَ صَائِمٌ، فَلْيَقُلْ: إِنِّي صَائِمٌ".^(٢)

يوضح النبي ﷺ في هذا الحديث بعض الحقائق المتعلقة بفريضة الصوم مستعينا في ذلك بالعديد من أساليب التأكيد ترسيخاً للمعنى في ذهن السامع، ودفعاً له إلى العمل بمقتضاه، فنراه ﷺ بادناً حديثه بأنَّ المؤكدة في قوله: "إن ربكم يقول" لافتاً بذلك انتباه السامع إلى تحقق ما يذكر بعدها، ونفى الشك عنه، ليتثبت عنده التأكد من نسبة القول إلى الله - تعالى - فيوجه كل حواسه إليه رغبة في الوقوف على المراد منه، فإذا بالقول يقرر له حقيقة هامة، وهي أن الله - تعالى - جعل جزاء الحسنة عشر أمثالها إلى سبع مائة ضعف، واختص الصوم من بين سائر العبادات بإخفاء ثوابه مع إضافته إليه - سبحانه - إضافة تعظيم وتشريف، وتأكيد على عظيم فضله، وجزيل ثوابه، يتبين لنا ذلك من إفصاحه ﷺ عن مقول ربنا عز وجل^(٣) - بقوله :

(١) عقيدة المؤمن ص ١٣٣.

(٢) الجامع الصحيح للترمذی ، كتاب الصوم، باب ما جاء في فضل الصوم، رقم (٧٦٤) وَجُنَّةٌ: أى وقاية؛ لأنه يقي صاحبه ما يؤذيه من الشهوات . والخُلُوف: تغير ريح الفم. النهاية في غريب الحديث والأثر مادناً(جنن - خلف).

(٣) الحديث القدسي هو ما أضافه الرسول - ﷺ - إلى الله - تعالى - غير القرآن الكريم علي اختلاف بين العلماء في لفظه أمين عند الله - تعالى - أم من عند رسوله - ﷺ -.

ينظر : موسوعة علوم الحديث الشريف د/ الخشوعي الخشوعي محمد ص ٣٥٨ طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية القاهرة، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م.

"كل حسنة بعشر أمثالها إلى سبع مائة ضعف، والصوم لى، وأنا أجزى به"، مبينا سعة رحمة الله - تعالى - من خلال شمول التضعيف للحسنات، وعمومه كل حسنة دون استثناء يفهم ذلك من استعماله لفظ "كل" المفيدة للشمول، (فهى اسم موضوع لاستغراق أفراد المنكّر كما هنا، والمعرف المجموع نحو ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ وأجزاء المفرد المعرف نحو "كل زيد حسن")^(١).

وتأكيدا على التضعيف المذكور زيدت الباء فى الخبر "بعشر" تحقيقا للمعنى، وتقريراً له، نظرا للأثر الذى يتركه الحرف الزائد فى نفس السامع، ودعوته إلى التفكير فى سبب الزيادة، وما تحمله من معان تؤدى جميعها غرضا واحدا وهو إفادة التوكيد.

وتصعيدا للمعنى المراد يقرر الحديث اختصاص الصوم بالله - تعالى - من بين سائر الطاعات بأمرين : أحدهما : إسناده إليه - تعالى - على سبيل الاختصاص وذلك فى قوله: "الصوم لى"، والآخر: انفراده - تعالى - بعلم مقدار ثوابه، وتضعيف حسناته وذلك فى قوله: "وأنا أجزى به"،

"والسبب فى إضافة الصيام إلى الله - تعالى - أنه لم يُعبد به غيره - تعالى - وكل إله باطل يتقرب إليه عابدوه بالصلاة والقرايين وغير ذلك، لكن لا يتقربون إليه إلا أمامه وبحضرته، ولا يتقربون إليه بصوم"^(٢) "كما أن الأعمال جميعا مظنة الرياء ولا تخلو من أن يكون للنفس فيها حظ لأنها أفعال ظاهرة، وأما الصوم فمن قبيل الترك إذ هو كف النفس عن مشتيتها فهو عبادة سلبية، وسر بين العبد وبين ربه ولا يطلع عليه غيره فكان أبعد عن الرياء"^(٣).

ومن أجل ذلك أكد الحق - سبحانه - انفراده بعلم مقدار ثواب الصوم بتكريره ذكر المسند إليه فى صورة ضمير الفصل "أنا" زيادة فى التقرير والإيضاح، وترغيبا أكثر للسامع فى التقرب إليه - تعالى - بالصوم، والحرص على إحسانه تناسبا للفعل مع الجزاء .

وكان المخاطب يسمع ويرى الحق سبحانه - يعد الصائمين بالثواب دون وسيط ولذلك كان من المناسب فى آيات الصيام أن يقول - سبحانه - : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾^(٤) ولم يقل : قل إنى قريب ليلغى الوساطة تماما.

(١) ينظر: مغنى اللبيب ص ٢٥٥ والآية من سورة مريم رقم (٩٥).

(٢) مجلة التوحيد ، من مقال بعنوان : من فضائل الصوم، د/ جمال المراكبى، ص ٤، العدد التاسع رمضان

١٤٢٥هـ.

(٣) ينظر: تحفة الأحوذى ١٨٧/٣.

(٤) سورة البقرة آية (١٨٦).

ويقرر النبي ﷺ حقيقة الصوم، وما يجنيه المسلم منه بقوله: "الصوم جنة" بطريق التشبيه وهو تشبيه للمحسوس بالمعقول^(١). وتشبيه المحسوس بالمعقول "دليل الثروة الفكرية، والقدرة على اقتناص المعاني من أغوارها السحيقة، وجوب آفاق الآخيلة الرحيبة بجناح قوى الخفق، وهو لا يسلس إلا لإنسان لماح الذكاء، شفاف العقل، عميق الملاحظة، عامر الواعية الباطنية بالمعاني المختلفة، والنظائر والأشباه الكبيرة)^(٢).

وتأكيدا على المبالغة في إثبات الوقاية للصوم، وتقريرها بالنسبة له خلا التشبيه من ذكر الوجه والأداة على طريقة التشبيه البليغ (إيهاما باتحاد الطرفين، وعدم تفاضلها، وارتفاعا بالمشبه إلى مستوى المشبه به، وهذه هي المبالغة في قوة التشبيه)^(٣)

كما أنه لتعريف المسند إليه الصوم بأل الجنسية فائدة قصره على كونه وقاية وحماية من قصر الموصوف على الصفة مبالغة في تحقق معنى الصفة للموصوف وتأكيدها له. وفي تحديده ﷺ ما يقى الصوم منه بالنار في قوله: "جنة من النار" تصوير مجازي سبيله المجاز المرسل لعلاقة المسببية، حيث إن الصوم يقى المسلم حقيقة من اقتراف الذنوب والآثام، وفي ذلك وقاية له من النار، فالتعبير المجازي يزيد من إيضاح المعنى، ويكسبه مبالغة وتمكيना لا يتحققان له لو سلك غير سبيله.

ونظرا لما يسببه الصوم من تغير رائحة فم الصائم تغيرا مكروها عند الناس، نرى النبي ﷺ يجعل من هذا الأمر المكروه حافظا أكبر على الصوم، وعدم النفرة منه، بتأكيده أن هذه الرائحة أطيب عند الله - تعالى - من ريح المسك بقوله: "ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك" ولغرابة ما يخبر به النبي ﷺ - هنا - من إثبات الأفضلية لرائحة فم الصائم مع كراهتها - على رائحة أطيب الطيب وأزكاه وهو المسك، نراه وقد قرر هذه الحقيقة وأكدها بأمرين: أحدهما: اللام الداخلة على المبتدأ "خلوف" توكيدا للخبر وتمكيना له في نفس السامع. والآخر إيثار التعبير بصيغة أفعل التفضيل "أطيب" المفيدة طيب الأمرين معا مع زيادة الصوم وتفوقه على المسك في ذلك، فالمفضل عليه شئ طيب الرائحة، بل هو أطيب الطيب، وذلك مما يؤكد إثبات الطيب لرائحة فم الصائم، ويقرره،

(١) دليل الفالحين، لابن علان الصديقي، ٢٤/٤، ط ١ دار الريان للتراث.

(٢) فن التشبيه، د/ على الجندى، ١١٢/٢، ط ٢ مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٧

(٣) ينظر: بحوث في البيان، د/ محمود السيد شيخون، بحث التشبيه ص ٥٠، دار الطباعة المحمدية.

وحتى تطمئن نفس السامع، ويزداد المعنى وضوحاً عنده قدم النبي ﷺ قوله : "عند الله" لتأكيد اختصاصه تعالى بذلك وتشريفاً لتلك الرائحة ورفعة لصاحبها وبذلك تزداد رغبة المسلم في أداء هذه العبادة المترتب عليها تلك الرائحة التي تقع من الله - تعالى - موقع القبول والاستحسان.

هذا ومن صفات عباد الرحمن الذين يرجى للصائم معيتهم أنهم "إِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا"^(١)، وهنا يدعو النبي ﷺ إلى هذا الخلق ويؤكد عليه بقوله: "وإن جهل على أحدكم جاهل وهو صائم فليقل: إني صائم" مستعينا في ترسيخ خلق التسامح عند الصائم بالأمر الإرشادي "فليقل"، وإنّ المفيدة مع جملتها التأكيد على الحالة المتلبس بها الصائم، وثباتها، وفي ذلك انتصار للجانب الروحي في الإنسان على الجانب المادي النازع إلى الشر، وهذا من أسمى مقاصد الصوم وغيره من أنواع العبادات الأخرى .

* * *

ومما يزيد النفس انشراحاً للصوم وإقبالاً عليه - خاصةً الفرض منه - ما أخبر به النبي ﷺ بقوله:

"إِذَا كَانَ أَوَّلُ لَيْلَةٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ صُفِّدَتِ الشَّيَاطِينُ وَمَرَدَةُ الْجِنِّ، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ النَّارِ فَلَمْ يُفْتَحْ مِنْهَا بَابٌ، وَفُتِّحَتْ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ فَلَمْ يُغْلَقْ مِنْهَا بَابٌ، وَيُنَادِي مُنَادٍ: يَا بَاغِيَ الْخَيْرِ أَقْبِلْ، وَيَا بَاغِيَ الشَّرِّ أَقْصِرْ، وَلِلَّهِ عُتَقَاءُ مِنَ النَّارِ، وَذَلِكَ كُلُّ لَيْلَةٍ"^(٢).

يقرر النبي ﷺ في هذا الحديث فضل شهر الصوم واختصاصه دون أشهر العام بأمور تؤكد فضله، وتزيد السامع رغبة فيه، وإقبالاً عليه، ومن ذلك التصفيد لدعاة الشر من الشياطين ومردة الجن بالأغلال الحاجزة لهم عن الإغواء والإفساد بين الناس منذ الليلة الأولى من ليالي شهر رمضان.

(١) سورة الفرقان آية رقم (٦٣) .

(٢) الجامع الصحيح للترمذي، كتاب الصوم، باب ما جاء في فضل شهر رمضان، رقم (٦٨٢) وصُفِّدَتِ الشَّيَاطِينُ: أي شُدت وأوثقت بالأغلال، والصفد والصفاد: القيد - ومردة الجن: المارد هو العاتى الشديد - وباغ: أي ناشد وطالب - أقصر : القصر الحبس - عتقاء : العتق هو التحرير - ينظر النهاية في غريب الحديث والأثر المواد: [صفد - مرد - بغى - قصر - عتق] .

فالاحتفاء بشهر الصوم، والتكريم له يبدأ مع اللحظات الأولى لميلاده، ومما يؤكد ذلك، التقيد بقوله ﷺ: "أول ليلة" ففي هذا التعبير تأكيد على فوروية الفعل المذكور، وعدم التراخي فيه.

وتمكيننا لمعنى الفعل عبر عنه النبي ﷺ بقوله: "صفت" إحياء بزيادة الإحكام، وشدة التوثيق للشياطين طوال شهر رمضان، وذلك توافقا مع وقع الكلمة، ودلالاتها على التغليظ والإحكام،

وتمكيننا للمعنى المراد، وتأكيدا له عبر النبي ﷺ بقوله: "الشياطين ومردة الجن" على سبيل ذكر الخاص بعد العام تنبيها على المبالغة في التصفيد للعتاة منهم خاصة لشدة إغوائهم، وقوة تأثيرهم مما يتطلب مقابلة ذلك زيادة في الدلالة على منعهم، وإخماد جذوة شرهم، فكأنهم لذلك قد أغلّوا، وصَفَدُوا مرتين.

(وقد قيل: إن تصفيد الشياطين وتقييدهم كناية عن ضعفهم في الإغواء، والإضلال وإشارة إلى كثرة الثواب والعفو، وأن الشياطين يقل إغوائهم فيصبرون كالمصفيدين، ويرد هذا القول باحتمال حمل اللفظ على ظاهره، وحقيقته، وأن ذلك كله علامة للملائكة لدخول الشهر وتعظيم حرمة، ولمنع الشياطين من أذى المؤمنين)^(١).

والأفضل عندي: هو حمل اللفظ على ظاهره، وأن التصفيد حقيقة واقعة لما في ذلك من زيادة القهر لقوى الشر، والتنكيل بهم تنكيلا يحسونه، ويجدون ألما شديدا في تلبسهم به، فضلا عن ذلك الألم المعنوي المتمثل في عجزهم عن ممارسة الإغواء والإفساد شهرا كاملا.

(وإن كان لا يلزم من تصفيد الشياطين جميعهم ألا يقع شر ولا معصية لأن لذلك أسبابا أخرى غير الشياطين كالنفوس الخبيثة، والعادات القبيحة، والشياطين الإنسية)^(٢).

ويتابع النبي ﷺ تقريره بعض فضائل شهر الصوم بقوله: "غلقت أبواب النار فلم يفتح منها باب، وفتحت أبواب الجنة فلم يغلق منها باب" مؤكدا هاتين الفضيلتين بأكثر من مؤكد اهتماما بهما، وعناية بشأنهما،

(١) ينظر: تحفة الأحوذى ٩٤/٣.

(٢) ينظر: السابق نفسه.

فلقد عقب ﷺ كل جملة من الجملتين بتذييل يؤكد معناها، ويضاعف من تقريره وشموله يتبين لنا ذلك من قوله: "فلم يفتح منها باب" وقوله: "فلم يغلق منها باب" إذ أن كلا من القولين يقتضيه المقام ويستدعيه تقويه للمعنى المراد، وحجزاً للنفس عن أن يساورها شك فى مضمونه، بإعادته عليها فى صورة تذييل مؤكّد كما نرى، (إذ أن التذييل يُؤتى به لتأكيد الكلام ودفع الشك عنه) ^(١).

ولم يقتصر الأمر فى تأكيد هذا المعنى وتقويته على التذييل فحسب، بل نراه ﷺ قد قابل بين أجزاء الكلام استيعاباً لحكم المتقابلات، وتقريباً للمراد، وترسيخاً له فى الذهن، بذكر كلا الأمرين فى صحبة نقيضه، مما يجعل كل واحد منهما كالتوكيد لمعنى الآخر، فغلق أبواب النار يستدعى لكمال الفرح به أن تفتح أبواب الجنة، وكذا فتح أبواب الجنة يستدعى لتمام الفرح به — أيضاً — أن تغلق أبواب النار، ومن هنا يثبت تأكيد كل جملة من الجملتين المتقابلتين لمعنى الأخرى، وإذا ما تأمل المرء اللفظين الدالين على الغلق، والفتح وما فيهما من تضعيف يدرك أن المراد من ذلك هو تأكيد ما يدلان عليه والتشديد على حصوله.

وقد قيل: (إن فتح أبواب الجنة عبارة عما يفتحه الله — تعالى — لعباده من الطاعات، وتلك أسباب لدخول الجنة، وغلق أبواب النار عبارة عن صرف الهمم عن المعاصى والآيئة بأصحابها إلى النار) ^(٢)، (والأولى الحمل على الظاهر حيث لا ضرورة تدعو إلى صرف اللفظ عن ظاهره) ^(٣)، فما الداعى إلى التأويل والقول بالكناية والمجاز مع أن الحقيقة — هنا — أبلغ لما فيها من مبالغة فى حصول الرحمة، وصرف العذاب تكريماً لشهر الصوم، وحال الصائمين. ومما يعظم ويؤكد رحمة الله — تعالى — فى شهر الصوم، عدم الاقتصار على غلق أبواب النار، وفتح أبواب الجنة مع كفاية ذلك فى إثبات سعة الرحمة، وزيادة التكريم، بل يكلف ربنا — جلا فى علاه — ملكاً ينادى فى الخلق بقوله: "يا باغى الخير أقبل ويا باغى الشر أقصر" (أى يا طالب الخير تعال فإن هذا أوانك، فإنك تعطى الثواب الجزيل بالعمل القليل، ويا مريد المعصية أمسك عن المعاصى وارجع إلى الله — تعالى — فهذا أوان قبول التوبة، وزمان المغفرة) ^(٤).

(١) ينظر: الإيضاح ٢٠٥/٣ — ٢٠٨ — وشروح التلخيص ٢٢٥/٣ وما بعدها.

(٢) بنظر: تحفة الأحوذى ٩٤/٣.

(٣) بنظر: السابق نفسه.

(٤) ينظر: تحفة الأحوذى ٩٤/٣.

فهذا النداء يؤكد حرص رينا - سبحانه - على ما فيه خير العباد وصالحهم، لما يفيدُه القول بغلق أبواب النار، وفتح أبواب الجنة من دعوة غير صريحة إلى التزام سبيل الخير، وهجر سبيل الشر أكدها هذا النداء وقرر أمرها،

ومن أجل التأكيد على عموم النداء هنا جعل النبي ﷺ المنادى وصفاً يشمل كل من يصح توجيه النداء إليه ودعوته، رغبة في عموم فعل الخير، وترك الشر، توافقاً مع الروح الإيمانية، والعطاءات الربانية السائدتين في شهر الصوم، ولا يخفى ما بين الندائين من تقابل يؤكد المعنى المراد، ويزيد السامع رغبة في فعل الخير، ونفوراً من الشر.

وبيلغ التأكيد على فضل شهر الصوم، وسعة رحمة الله - تعالى - فيه ذروته عندما يقف السامع على قوله ﷺ: "ولله عتقاء من النار" فيشعر بفرحة غامرة لما أخبر به في هذا القول ولما يحسه من عناية واهتمام بتحقيق معناه، يمثلهما التقديم للمسند - الجار والمجرور (لله) على المسند إليه "عتقاء من النار" وما يفيدُه هذا التقديم من قصر يؤكد المعنى المراد، وكثرته أيضاً لما يشعر به تنكير قوله: "عتقاء" من كثرة مَنْ يُعتق في هذا الشهر مما يفتح باب الأمل واسعاً أمام الجميع .

ومما يوحى بتتابع الرحمات في شهر الصوم مع التأكيد على كثرتها قوله ﷺ: "وذلك كل ليلة". وقد قيل: (إن الإشارة بقوله: "ذلك" إما للبعد وهو النداء، وإما للقريب وهو الإخبار بما لله - تعالى - في هذا الشهر من عتقاء)^(١)، والأولى عندي اعتبار الإشارة لكلا الأمرين تكثيراً للرحمة، وتعظيماً للعطاء، وجذباً أكثر للنفوس إلى طاعة الله - تعالى - وعبادته.

* * *

ومما تميز به الصوم عن سائر العبادات ما أخبر به النبي ﷺ بقوله :

"لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ: فَرَحَةٌ حِينَ يُفْطِرُ، وَفَرَحَةٌ حِينَ يَلْقَى رَبَّهُ"^(٢).

فما أعظم أن ينجز الإنسان ما يكلف به من عمل، وعند فراغه منه يشعر براحة، وفرحة تغمر قلبه، وفوق ذلك يجد الفرح الأكبر عند لقائه بسيده ومولاه الذي قام بالعمل طاعة له، وامتنالاً لأمره، وهكذا حال الصائم المحتسب إذا أفطر فرح بزوال تعب، وجوعه، وعطشه، وبتمام عبادته، وإذا لقي ربه فرح لما يجده عنده من ثواب وعطاء على صومه.

(١) ينظر: حجة الأحمدي ٩٥/٣.

(٢) الجامع الصحيح للترمذي: كتاب الصوم، باب ما جاء في فضل الصوم، رقم (٧٦٦) .

وفى هذا الحديث يقرر النبي ﷺ هذا المعنى عناية به، واهتماماً بأمره، وذلك بعرضه فى أسلوب بيّن، موجز، مؤكّد.

فأما بيانه فلتتحقق العلم بمعناه، ووضوحه وضوحاً لا لبس فيه ولا إشكال، وأما إيجازه: فلقلة ألفاظه مع كثرة ما حوت من معان تفيض كثرة، ويعود الكاتب الفذ بعد طول ما كتب فيها معترفاً بتقصيره، وعدم وفائه بحقها.

وكيف لا؟ وكلامه ﷺ كما وصفه الجاحظ بأنه (الكلام الذى قل عدد حروفه، وكثر عدد معانيه، وجل عن الصنعة، ونزه عن التكلف، فلم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً، ولا أقصد لفظاً، ولا أعدل وزناً، ولا أجمل مذهبا، ولا أكرم مطلباً، ولا أحسن موقعاً، ولا أسهل مخرجاً، ولا أفصح معنى، ولا أبين فحوى من كلامه ﷺ)^(١). "فالبلاغة النبوية كأنما هى فى اختصارها وإفادتها نبض قلب يتكلم"^(٢).

وأما تأكيده: فنجده حاصلًا بأكثر من مؤكّد أذكر من ذلك أولاً: القصر بطريق التقديم فى قوله ﷺ: "للصائم فرحتان" فنرى أن تقديم المسند هنا "للصائم" قد أكسب هذا القول تقريراً وتوكيداً بقصر المسند إليه "فرحتان" عليه قصراً حقيقياً تحقيقياً، إذ من خلاله يرسخ فى ذهن السامع عدم تجاوز هاتين الفرحتين الصائم إلى غيره لتلبسه حقيقة بسببهما وهو الصوم،

هذا: ولما فى قوله ﷺ: "للصائم فرحتان، من إيهام، وخفاء يحدث تشوقاً عند السامع، ورغبة فى الوقوف على إيضاحه، نراه ﷺ بادر إلى التوضيح، والتفصيل لحال المبهم بقوله: "فرحة حين يفطر، وفرحة حين يلقي ربه" مؤكداً على عظيم فضل الله على الصائم، وجزيل ثوابه له، ومضاعفاً بذلك التوكيد للمعنى الذى أكدته جملة المبهم تمكيناً له فى نفس السامع.

(فالشئ إذا جاء بعد الشوق إليه يقع فى النفس فضل وقوع، ويتمكن أى تمكن، ويكون شعورها به أتم)^(٣)، ولم لا وقد طرق المعنى المراد أذن السامع مرتين: إحداهما: حال إيهامه، والأخرى: حال توضيحه وبيانه.

(١) ينظر: البيان التبيين، للجاحظ، ت / عبد السلام هارون، ١٦/٣، وما بعدها،

(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، تأليف: مصطفى صادق الرافعى، ص ٢٣٣، مكتبة الإيمان، المنصورة

١٤١٧هـ

(٣) ينظر: الإيضاح ١٩٦/٣ - وشروح التلخيص ٢١٠/٣، ٢١١.

ولعل من يتأمل جملتى التفصيل يقف على ما فيهما من تأكيد آخر يمثله التكرير للفظـة
"فرحة" تقوية لمعنى الوعد، وتثبيتاً له عند السامع، وإمعاناً فى تقرير ما يسره ويزيده رغبة
فى السبب وهو الصوم .

ولا يخفى ما فى تنكير لفظـة "فرحة" من دلالة على التعظيم التـكثير، مع ما يستدعيه
التنكير من إفساح للمجال أمام خيال السامع فى تصور كنه الفرحة الموعودة، وتخيل أبعادها.
فما أعظم الصوم، وما أسعد النفوس المتعبدة به، فقد جمع لها الصوم بين فرحتين:
إحداهما: يحس أثرها عاجلاً حال فطره، والأخرى: يعظم إحساسه بثوابها حين يلقى ربه،
ويطلعه على عمله الذى قدم فيخص الصوم من بينه بالفرح والسرور، وكأنه ما قدم غيره
لعظيم ما يجد عنده - تعالى - من ثواب خاص به.



المبحث الخامس

التوكيد في مقام الحديث عن الحج

المبحث الخامس

التوكيد في مقام الحديث عن الحج

الحج هو الركن المتمم لأركان الإسلام الخمسة، وحقيقته: القصد إلى البيت الحرام بأعمال مخصوصة تقربا إلى الله - تعالى -، وهو من أعظم القرب، وأشرف الوسائل، إذ به يظهر الإنسان نفسه من دنس الذنوب التي علقت به، ويعود كيوم ولدته أمه بريئا من كل ذنب مطهرا من كل إثم.

وكما أن الحج ينفي عن العبد ذنوبه، فهو أيضا ينفي عنه الفقر، ويخلصه من ضيق المعيشة، وأعظم من ذلك الوعد المؤكد لصاحب الحج المبرور بدخول الجنة، والتمتع بنعيمها، يصدق هذا قول النبي ﷺ:

"تَابِعُوا بَيْنَ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ، فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الْفَقْرَ وَالذُّنُوبَ كَمَا يَنْفِي الْكَبِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ وَالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَلَيْسَ لِلْحَجَّةِ الْمَبْرُورَةِ ثَوَابٌ إِلَّا الْجَنَّةُ"^(١).

فالنبي ﷺ في هذا الحديث يرشد أمته إلى سبيل الخلاص من أمرين يكرران صفو حياة المسلم، ويقضيان مضجعه، وهما: الفقر والذنوب، فيقول: "تابعوا بين الحج والعمرة" (أي: قاربوا بينهما إما بالقران، أو بفعل أحدهما بعد الآخر، فإذا اعتمرتم فحجوا، وإذا حججتم فاعتمروا)^(٢) آمرا بفعل المأمور به على سبيل النصح والإرشاد.

ولما في جملة الأمر هذه من إبهام وخفاء، ولما تثيره في نفس السامع من تسلؤل عن الحكمة والعائد الذي يجنيه المرء إن هو امتثل للأمر وعمل بمقتضاه، نرى النبي ﷺ يُتبع ذلك الأمر بما يوضح معناه ويبين الحكمة والعائد منه، ويؤكد على أهمية المأمور به وضرورته بقوله: "فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكبر خَبَثَ الحديد والذهب والفضة"، فمن خلال هذا الإيضاح يتأكد المعنى المراد، وتزداد النفس إقبالا على ما أمرت به لما تمكن عندها من عظيم فائدته، وتسببه في خلاصها مما يفسد متعتها ويذهب براحتها في الدنيا والآخرة وهما الفقر والذنوب.

(١) الجاع الصحيح للترمذي، كتاب الحج، باب ما جاء في ثواب الحج والعمرة، رقم (٨١٠). والكبير: كبير الحداد، وهو المبنى من الطين، وقيل: الرُّقُّ الذي يَنْفَخُ به النار - والخَبَثُ: هو ما تلقى به النار من وسخ الفضة والنحاس وغيرهما إذا أذيبا - النهاية في غريب الحديث مادتا: [كبر، وخبث].

(٢) ينظر: تحفة الأحوذى ٢٤٢/٣.

(سواء فى ذلك فقر اليد وفقر النفس، وكذا صغير الذنوب وكبيرها، لدلالة السياق على ذلك، وعموم معنى اللفظين - الفقر والذنوب - وعدم وجود ما يخصهما) (١).

وإبرازا لقيمة الحج والعمرة، وتأكيذا على أثرهما القوى فى محو الفقر، والذنوب عن المسلم نرى النبى ﷺ قد أسند إليهما الفعل المذكور على سبيل التجوز بأسلوب المجاز العقلى لعلاقة السببية، إذ الفاعل الحقيقى لذلك هو الله - تبارك وتعالى - وعلى ذلك ففى الإسناد المجارى هنا مبالغة فى التأكيد على أهمية السبب، مع إيجاز العبارة وقربها من الأفهام.

(فالمجاز العقلى من شأنه أن يفخم^{عليه} المعنى وتحدث فيه النباهة، وهو كنز من كنوز البلاغة، ومادة الشاعر المفلق والكاتب البليغ فى الإبداع والإحسان، والاتساع فى طرق البيان) (٢).

ونظرا لاهتمامه ﷺ بالتأكيد على ما أثبتته من فضل للحج والعمرة نراه صَدَّرَ جملة الإيضاح السابقة بأنَّ الداخلة على ضمير التَّأْنِ فى قوله "فإنهما" تمكينا للمعنى فى ذهن السامع.

وتصعيدا لما بدأه ﷺ من تأكيد على فضل الحج والعمرة، وجذبا أكثر للنفوس إلى التقرب إلى الله - تعالى - بهما نراه - ﷺ - صور أثرهما وهو من الأمور المعنوية تصويرا حسيا يزيد من تخيل السامع له، ويؤكد فعاليتهما فى نفى الفقر والذنوب، وذلك حيث قال: "كما ينفى الكير خبث الحديد والذهب والفضة" فكما يصهر الصانع هذه المعادن تصفية لها من الشوائب العالقة بها يصهر الحج والعمرة المسلم فى ميدان الطاعة، والعبودية، والتذلل والامتثال لأمر الله - تعالى -، طلبا لنفى الفقر، والذنوب عنه.

وأرى أنه كان يكفى فى التمثيل ذكر نوع واحد من هذه المعادن الثلاثة المذكورة، ولكن يبدو أن النبى ﷺ قد ذكر الأنواع الثلاثة إشارة إلى صنوف الناس ومراتبهم بالنسبة للفقر والذنوب، ودلالة على أنه برغم تفاوتهم فى ذلك فالنقى والمحور سواء للجميع وذلك من سعة رحمة الله - تعالى - وفضله.

(١) ينظر: تحفة الأصدان، ٢/ ٢٤٢

(٢) ينظر: دلائل الإعجاز ص ٢٩٤ ، ٢٩٥.

ويبلغ الترغيب في التقرب إلى الله - تعالى - بالحج والعمرة ذروته مع الوقوف على قوله ﷺ: "وليس للحجة المبرورة ثواب إلا الجنة" وتأكيده على ذلك بأسلوب القصر بطريق النفي والاستثناء - وما أقواه من مؤكد - نافيا أى ثواب للحجة المبرورة عدا دخول الجنة. وما أعظمه من ثواب، وهذا لا يعنى ألا يشعر الحاج حجا مبرورا بأثره الطيب في الدنيا كنفي الفقر مثلا السابق ذكره هنا، أو الإحساس باطمئنان القلب، وسعادة النفس، أو غير ذلك، ولكن يراد من هذا التعبير أنه وإن تعددت صنوف النعم وأنواع الثواب على الحج المبرور إلا أن ذلك كله يصبح غير معتد به في مقابلة دخول الجنة، وبذلك تتأكد هذه النتيجة العظيمة، ويتقرر أمرها في ذهن السامع، فيجتهد ألا يفوته تحصيلها.

* * *

ورغبة من النبي ﷺ في زيادة أجر الحاج، وتعظيم ثوابه، ورجاء القبول منه بوجهه إلى ما يوفق بسببه إلى تحقيق ذلك، فيقول ﷺ :

"الطَّوَّافُ حَوْلَ الْبَيْتِ مِثْلُ الصَّلَاةِ إِلَّا أَنْكُمْ تَتَكَلَّمُونَ فِيهِ، فَمَنْ تَكَلَّمَ فِيهِ فَلَا يَتَكَلَّمَنَّ إِلَّا بِخَيْرٍ"^(١).

فالطواف حول البيت ركن من أركان الحج، وموطن من مواطن تجلى رحمت الله - تعالى - على الحجاج يشعرون أثناء أدائه بمعاني العبودية الكاملة، تغمرهم الخشية، ويحدوهم الرجاء، ومن هنا كان تنبيه النبي ﷺ في هذا الحديث على أهمية الخشوع، والتزام السكينة أثناء أداء هذه العبادة.

وتمكينا لهذا المعنى في نفوس السامعين، وتأكيذا على أهميته نراه ﷺ قد ساوى بين الطواف وبين عبادة تمثل السكينة والخشوع أصدق تمثيل - إنْ هي أدت كما ينبغي لها - وهي الصلاة، فقال: "الطواف حول البيت مثل الصلاة" ففي هذا القول تشبيه للطواف حول البيت بالصلاة في كونه عبادة تتطلب لقبولها وكثرة ثوابها السكينة والخشوع استشعارا لجلال البيت ومهابة صاحبه.

ونظرا لكون الكلام أثناء الطواف مباحا فقد استثناء النبي ﷺ من المشابهة بقوله: "إلا أنكم تتكلمون فيه"، (فالتماثل بين الطواف والصلاة معتبر في كل شئ وجودا و عدما إلا في الكلام وما في معناه من المنافيات من الأكل والشرب، وسائر الأفعال الكثيرة)^(٢).

(١) الجامع الصحيح للترمذی، کتاب الحج، باب ما جاء في الكلام في الطواف، رقم (٩٦٠).

(٢) ينظر: تحفة الأحوذی ٣/٣٩٦.

وفى تخصيص الكلام هنا بإخراجه من أوجه المشابهة، والتأكيد على فعله بأن المؤكدة إحياء بأنه الأكثر وقوعاً لصعوبة حجز النفس عن الكلام، ولعدم الكلفة فى فعله، ومن ثم نبه النبى ﷺ إلى أن للكلام أثناء الطواف حدا لا ينبغي تجاوزه فقال: "فمن تكلم فيه فلا يتكلمن إلا بخير" من ذكر الله، وإفادة علم، واستفادته على وجه لا يشوش على الطائفين^(١) وما عدا ذلك مما يصرف الطائفين عن التفكير فى جلال الموقف، والاجتهاد فى مناجاة الله - تعالى - فهو غير مباح ومنهى عنه صراحة مع التأكيد على ذلك بتقرير النبى ﷺ لصيغة النهى وتأكيدا بأكثر من مؤكد.

ومن ذلك نون التوكيد الشديدة اللاحقة للفعل المنهى عنه فى قوله ﷺ : "فلا يتكلمن" فالنون من مؤكدات الجملة الفعلية، وهى إما شديدة كما هنا أو خفيفة، "والشديدة أقوى دلالة على التأكيد من الخفيفة؛ لأن تكرير النون قد جعل بمنزلة تكرير التأكيد"^(٢).

وفى استخدام النون الشديدة هنا دلالة على شدة الاهتمام بتقرير النهى، (فدخولها على الفعل بمنزلة ذكره ثلاث مرات)^(٣)، وذلك مما يزيد المعنى رسوخاً فى ذهن السامع.

ومما يضاعف من التأكيد قصر النبى ﷺ إباحة الكلام أثناء الطواف على ما فيه خير، بطريق النفى والاستثناء، دفعا لأى ميل نفسى إلى الانشغال بالكلام الدنيوى-فضلا عما فيه من سوء-عن مقاصد الطواف السامية، وزيادة فى التأكيد على المباح من الكلام زاد النبى ﷺ الباء فى اللفظ الدال عليه فى قوله: "بخير" تحقيقاً له، وعناية، واهتماماً به.

* * *

وتوافقاً مع قواعد المنهج التعليمى يزداد اهتمام المعلم وعنايته بعظائم الأمور التى يكثر نفعها، ويجل شأنها، وعلى أساس هذا المنهج نرى النبى ﷺ يولى أحد أركان الحج وهو الوقوف بعرفة اهتماماً زائداً يتميز به عن سائر مناسك الحج، يوضح ذلك قوله:

"الْحَجُّ عَرَفَاتٌ، الْحَجُّ عَرَفَاتٌ، الْحَجُّ عَرَفَاتٌ، أَيَّامُ مِنَى ثَلَاثٌ" فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ، وَمَنْ أَدْرَكَ عَرَفَةَ قَبْلَ أَنْ يَطْلُعَ الْفَجْرُ فَقَدْ أَدْرَكَ الْحَجَّ"^(٤).

(١) تحفة الأحوذى ٢٠/٣٩٦ .

(٢) شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ، ت/ محمد محبى الدين عبد الحميد ت ٣١٦/٤ ، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م - وينظر: مغنى اللبيب ص ٤٤٣ .

(٣) ينظر: البرهان ٢/٤١٩ .

(٤) الجامع الصحيح للترمذى ، كتاب تفسير القرآن، باب "ومن سورة البقرة رقم (٢٩٧٥) .

الوقوف بعرفة هو أعظم أركان الحج إذ به يُدرك، ومن ثم أكد النبي ﷺ على أهميته بأن جعل عموم الحج يمثل هذا الركن فقال: "الحج عرفات، الحج عرفات، الحج عرفات"، أى ملاك الحج، ومعظم أركانه وقوف عرفات لأنه يفوت بفواته^(١).

فنرى التأكيد على أهمية الوقوف بعرفة يمثل التكرير لجملة "الحج عرفات" ثلاث مرات، مع قصر المسند إليه "الحج" على المسند "عرفات" بطريق التعريف للمسند إليه بأل الجنسية تحقيقاً للمبالغة فى التوكيد تلك المبالغة التى تُرسّخ فى ذهن السامع توقف صحة الحج على الوقوف بعرفة فيحرص على ألا يفوته، ويجتهد فى التضرع والدعاء حال وقوفه به عسى أن يكون ممن يغفر الله - تعالى - لهم، ويرحمهم ببركة هذا الموقف العظيم.

ومتابعة لبيان أعمال الحج، وتوضيحاً لمناسكه يقول النبي ﷺ: "أيام منى ثلاث فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه".

(أيام منى هى أيام التشريق، وهى الأيام المعدودات، وأيام رمى الجمار، وهى الثلاثة التى بعد يوم النحر)^(٢)، وبهذا القول يحدد النبي ﷺ عدد هذه الأيام بحصرها فى العدد "ثلاثة"، وينبه على جواز التعجل، والتمهل فى أداء أفعالها، (فمن تعجل فى الخروج من منى فنفر فى اليوم الثانى من أيام التشريق بعد رمى جماره فلا إثم عليه، ومن تأخر عن النفر فى اليوم الثانى من أيام التشريق إلى اليوم الثالث حتى بات بمنى ليلة الثالث، ورمى يوم الثالث جماره فلا إثم عليه، وهو الأفضل لكون العمل فيه أتم لعمله ﷺ)^(٣).

ونرى فى هذا التوضيح تقريراً منه - ﷺ - لما يباح فعله للحاج أيام الرمى، وذلك باقتباسه النص القرآنى الدال على ذلك، وتضمينه حديثه، والنص القرآنى هو قوله - تعالى -:

﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾^(٤)، وفى ذلك تقرير لما نطق به

القرآن الكريم، تأكيداً على سماحة الإسلام، ويسره "إذ الاقتباس أن يأخذ المتكلم كلاماً من كلام غيره يدرجه فى لفظه لتأكيد المعنى الذى أتى به"^(٥)، كما أن تذكر الآية الكريمة عند سماع

(١) تحفة الأحوذى : ٤٠٠/٧.

(٢) ينظر السابق ٤٠١/٧.

(٣) ينظر: السابق نفسه .

(٤) سورة البقرة، بعض آية رقم (٢٠٣).

(٥) الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان. لابن قيم الجوزية، ص ١٣٤، مكتبة المتنبى القاهرة —

وينظر: للإيضاح ١٣٧/٦ - ١٤٠ - شرح التلخيص ٥٠٩/٤ وما بعدها.

الحديث الشريف يشعر السامع وكأن المعنى قد تكرر عرضه عليه مرتين فى آن واحد، فيرسخ فى ذهنه، ويتأكد المراد منه.

وزيادة فى التأكيد على أهمية الوقوف بعرفة نرى النبى - ﷺ - يعاود الحديث عنه توضيحاً لما يُدرك به هذا الموقف العظيم، بقوله: "ومن أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر فقد أدرك الحج" (أى: من جاء عرفة ووقف به ليلة المزدلفة قبل طلوع الفجر يوم النحر لم يفته الحج وأمن من الفساد) ^(١)،

ويؤكد النبى - ﷺ - هذه الحقيقة بقدر التحقيق التى تفيد تقرير المعنى وتثبيتته مع الإشعار بتشوق السامع إليه، "فهى لا يؤتى بها فى شئ إلا إذا كان السامع متشوقاً إلى سماعه" ^(٢)، وما أشد شوق السامع إلى معرفة ما يتم حجه.

وفى تسليط النبى - ﷺ - الفعل "أدرك" -الأول- على المكان "عرفة" دون الحدث وهو الوقوف مع عدم ذكره إيجاز بحذف المضاف يؤكد سماحة الإسلام ويسره إذ يقرر أن إدراك هذا الركن العظيم يتحقق بمجرد التواجد بأرض عرفة على أى هيئة يستطيعها الإنسان، وفى أى جزء منه رحمة بالخلق، ومراعاة لأحوالهم، فما فرضت الفرائض، وسنت السنن إلا رحمة، وتفعيلاً لخلق الرحمة فيما بينهم، فطوبى لمن لبى نداء ربه، وأتم أركان بناء دينه بحج بيت الله -تعالى- تطهيراً لنفسه من أوزارها، وعودة بها إلى يومها الأول فى الدنيا تهيئة لموعود الله -تعالى- بالجنة.



(١) ينظر: تحفة الأحوذى ٣/٣٢٥.

(٢) البرهان ٢/٤١٧.

المبحث السادس

التوكيد في مقام الحديث عن الجهات

المبحث السادس

التوكيد في مقام الحديث عن الجهاد

(الجهاد مأخوذ من الجَهد، وهو الطاقة والمشقة، إذ هو استفراغ الإنسان ما في وسعه وطاقته من قول أو فعل في الحرب ومقاتلة العدو) (١)،

فهو أساس عزة الأمم، ورفع راية الشعوب، وهو درع الحق، وسبيل ظهوره، ولنعم الوسيلة هو للفوز بالقرب من الله -تعالى- إذ به تعلق كلمته -تعالى- ويُمكن لنشر دينه في الأرض، يوضح لنا ذلك ما رواه الصحابي الجليل أبو هريرة -رضي الله عنه- بقوله:

"مَرَّ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ -ﷺ- بِشَعْبٍ فِيهِ عُيَيْنَةٌ مِنْ مَاءٍ عَذْبَةٍ، فَأَعْجَبَتْهُ لَطِيبُهَا، فَقَالَ: لَوْ اعْتَزَلْتُ النَّاسَ فَأَقَمْتُ فِي هَذَا الشَّعْبِ، وَلَنْ أَفْعَلَ حَتَّى أَسْتَأْذِنَ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ- فَذَكَرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ -ﷺ-، فَقَالَ: لَا تَفْعَلْ، فَإِنَّ مَقَامَ أَحَدِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَفْضَلُ مِنْ صَلَاتِهِ فِي بَيْتِهِ سَبْعِينَ عَامًا، أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ، وَيُدْخِلَكُمْ الْجَنَّةَ؟ اغْزُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مَنْ قَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فُوقَ نَاقَةٍ وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ" (٢).

فهذا الحديث يؤكد عظم منزلة الجهاد في سبيل الله، وفضله على سائر العبادات الأخرى حيث نهى النبي -ﷺ- الصحابي الذي استأذنه في الإقامة في الشعب الذي أعجبه منظره، والانتقطاع فيه للعبادة مبينا له ما هو أفضل عند الله -تعالى-، وأنفع لدينه، وهو الجهاد، فهو أفضل السبل لمغفرة الذنوب، ووجوب الجنة التي ما تمنى الصحابي الانتقطاع في الشعب للعبادة إلا طلبا لها، وأملا في دخولها،

فنراه -ﷺ- بادر طلب الصحابي بقوله: "لا تفعل" ناهيا له عن فعل ما جال بخاطره، وتمنته نفسه، ولما في صيغة النهي من إبهام يدعو السائل والسامع أيضا إلى التفكير مليا في

(١) ينظر: لسان العرب مادة: (جهد).

(٢) الجامع الصحيح للترمذي. كتاب فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل الغدو والرواح في سبيل الله. رقم (١٦٥١). والشعب: ما انفرج بين جبلين، وقيل: هو الطريق في الجبل. لسان العرب مادة: (شعب)- وفوق ناقة: هو ما بين الحلبتين من الراحة، وتضم فاؤه وتفتح (النهاية في غريب الحديث، مادة: (فوق)

معرفة السبب - فالطلب يتعلق بالعبادة والطاعة لا إثم فيه ولا باطل خروا النبي - ﷺ - يُعَقَّبُ نهيه بما يكشف عن سببه، ويزيل الغموض الذى يكتنفه بقوله: "فإن مقام أحدكم فى سبيل الله أفضل من صلاته فى بيته سبعين عاما"، مبينا بذلك أن الانقطاع للصلاة والعبادة وإن كان فيه خير للمسلم بدلالة التعبير بصيغة أفعال التفضيل، (التي تدل على أن طلب الصحابي كان مفضولا لا محرما) ^(١)، إلا أن هناك عملا يفوقه أجرا ونفعا وهو الجهاد فى سبيل الله، مفضلا الثبات عليه إعلاء لكلمة الله، ونشرا لدينه، على الثبات على أداء الصلاة فى البيت سبعين عاما، مع تأكيد هذا الحكم وتقريره فى نفس السامع بأن المؤكدة التى تُشعر بأهمية ما يذكر بعدها، فيتنبه السامع له، فيرسخ فى ذهنه، ويثبت عنده، وفى ذلك مزيد عناية واهتمام بالمعنى المراد، وفى اختياره - ﷺ - للصلاة مفضلا عليه إشعار بتناهى الأفضل وهو الجهاد فى سبيل الله فى الفضل نظرا لتفضيله على عبادة سائر العبادات تبع لها فى الفضل وهى الصلاة.

(والتوقيت للثبات على العمل المفضول بسبعين عاما يراد به الدلالة على الكثرة لا التحديد) ^(٢) "فقد تكرر ذكر السبعة، والسبع، والسبعين، والسبعمئة فى القرآن وفى الحديث، والعرب تضعها موضع التضعيف والتكثير" ^(٣)، (إذ يستكثرون فى الآحاد بالسبعة، وفى العشرات بالسبعين، وفى المئين بسبعمئة) ^(٤).

وبعد تفضيله - ﷺ - للجهاد فى سبيل الله على الانقطاع للصلاة والعبادة سبعين عاما، نراه يوجه للسامعين سؤالا يثير فيهم الدهشة والعجب، وذلك بقوله: "ألا تحبون أن يغفر الله لكم ويدخلكم الجنة؟" بادئا السؤال بأداة التنبيه التى تفيد العرض « أَلَا » حرصا على تحقق المسؤول عنه لأمره.

وبعد أن يطرق السؤال أذن السامعين يسأل كل منهم نفسه قائلا: ومن منا لا يحب ذلك، ولكن كيف السبيل؟ وإذا بالجواب يأتى سريعا ومباشرا منه - ﷺ - بقوله: "اغزوا فى سبيل الله" موفرا على السائل السؤال، ومقللا من استشرافه النفسى، ومقررا المعنى المراد بدفع الشك عنه، يفاد ذلك من أسلوب الفصل لشبه كمال الاتصال بين جملة "اغزوا...." وسابقتها التى حوت سؤالا مقدرا.

(١) ينظر: تحفة الأحوذى ٣٩/٥.

(٢) ينظر: السابق نفسه.

(٣) لسان العرب، والنهاية فى غريب الحديث مادة: (سبع).

(٤) ينظر: تفسير البحر المحیط لأبى حيان الأندلسى، ت/ عادل أحمد عبد الموجود، وآخرين، ٧٩/٥، ط ١ دار

الكتب العلمية، بيروت ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

ولا يخفى ما فى التعبير بالأمر "اغزوا" من حث زائد منه -ﷺ- على الجهاد لما له من أثر وفضل عظيمين.

وفى ختام الحديث يزف النبى -ﷺ- بشرى وجوب الجنة لكل من جاهد فى سبيل إعلاء كلمة الله، ونشر دينه الحق بقوله: "مَنْ قَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فُؤَادًا نَاقَةً وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ"، وهنا فليعقد السامع الفطن مقارنة بين طلب الصحابى الانقطاع فى الشَّعب للعبادة إلى أن توافيه منيته رغبة فى نيل رضا الله -تعالى-، ودخول الجنة، وبين تحقق نفس النتيجة - مع الفرق فى المنزلة - بسبب الجهاد فى سبيل الله -تعالى- فترة يسيرة جدا كنى النبى -ﷺ- عن قصو زمنها بقوله: "فُؤَادًا نَاقَةً"، وفى نهاية المقارنة سوف يتأكد له شرف الجهاد، وفضله على سائر العبادات الأخرى، وبذلك يزداد رغبة فيه، وإقبالاً عليه، وحرصاً على إخلاص النية فى طلبه، حتى تتم الفائدة المرجوة من ورائه، ولذا أكد النبى -ﷺ- على ضرورة الإخلاص بتكريره ما يحققه وهو قوله: "فى سبيل الله" تتويجا لهذا العمل الأفضل بما يجعله مقبولا عند الله -سبحانه وتعالى-.

* * *

ولما فى الجهاد من بذل لأعلى ما يملك الإنسان وهو النفس، نرى النبى -ﷺ- يتبع فى سبيل الحث على ذلك تأكيد البشارة والوعد بالحصول على أعلى ما تشتهي النفس وهو الجنة، وهذا ما دعا أحد الصحابة عندما سمع ما قاله النبى -ﷺ- فى هذا الخصوص إلى العزم على تحقيقه.

"فعن أبى بكر بن أبى موسى الأشعرى قال: سمعتُ أبى بِحَصْرَةَ العدو يقول: قال رسول الله -ﷺ-: "إِنَّ أَبْوَابَ الْجَنَّةِ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ". فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ رَثُ الْهَيْئَةِ: أَنْتَ سَمِعْتَ هَذَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ -ﷺ- يَذْكُرُهُ؟ قَالَ: نَعَمْ. فَرَجَعَ إِلَى أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: أَقْرَأُ عَلَيْكُمْ السَّلَامَ، وَكَسَرَ جَفْنَ سَيْفِهِ، فَضَرَبَ بِهِ حَتَّى قُتِلَ^(١).

(١) الجامع الصحيح للترمذى. كتاب فضائل الجهاد، باب ما ذكر أن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف. رقم (١٦٥٩). والرث: الخلق الخسيس البالى من كل شئ، ورجل رث الهيئة فى لبسه، وأكثر ما يستعمل فيما يلبس - والجفن: غمد السيف - لسان العرب مادتا: (رث، وجفن).

فالسحابى الجليل أبو موسى الأشعرى - عليه السلام - يتخذ من هذا القول للنبي - عليه السلام - وسيلة يعبئ بها طاقات جنده، ويشحذ بها همهم، وهم بحضرة العدو، وفى انتظار ملاقاته حتى يجعل كل واحد منهم قول النبي - عليه السلام - هدفا يسعى من أجل تحقيقه، فيكون النصر حليفا للمسلمين، يسعد حيهم به، وشهيدهم بالجنة.

(فهذا القول النبوى يقصد به أن الجهاد، وحضور معركة القتال طريق إلى الجنة وسبب لدخولها، وفى ذلك ترغيب فى الجهاد وحث عليه) ^(١)، ومن ثم نرى النبي - عليه السلام - صدر قوله بأن التى تفيد تقرير مضمون الكلام الداخلة عليه، وما أن تفرع أذن السامع حتى تشعره بأهمية ما يلقي عليه، فيتنبه له، ويصغى إليه، فإذا بالقول الكريم يحمل بشارة سارة، ووعدا مفرحا يترتب حصوله على فعل ما يحقق إعلاء كلمة الله - تعالى -، ونشر دينه، ونصرة الحق وهو الجهاد فى سبيل الله - تعالى - الذى كنى عنه النبي - عليه السلام - بقوله: "تحت ظلال السيوف"،

وقد قيل: (إن الكناية هنا عن الدنو من العدو فى الحرب بحيث تعلق السيوف المقاتل حتى يصبح وكأنه مستظل بها) ^(٢)،

وبذلك يتحقق مفهوم بيع المجاهدين أنفسهم مقابل أعلى سلعة وهى الجنة الوارد ذكره فى قوله - تعالى -: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدَا عَلَيْهِمْ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم﴾ ^(٣).

ولا يخفى ما يوحى به عموم الحديث من الكناية عن سرعة الوصول إلى الجنة، وفورية دخولها، فما أن يرزق المسلم الشهادة فى سبيل الله حتى ينقل من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، وتفتح له أبواب الجنة على مصارعها لينعم بما شاء وقتما شاء، وكيفما شاء،

وفى التعبير من خلال الكناية تقرير لهذه السرعة مع إيجاز فى تصوير فضل الجهاد، ومن ثم كان بمثابة المفتاح لأبواب الجنة، وذلك تبعا لذكر الأبواب التى تستدعى لفتحها مفتاحا يمثلها هنا الجهاد فى سبيل الله.

(١) ينظر: تحفة الأحوذى ٤٦/٥.

(٢) ينظر: السابق نفسه.

(٣) سورة التوبة آية رقم (١١١).

ولإعجاب القوم، وشدة فرحهم بما سمعوه من أبي موسى الأشعري -رضي الله عنه- حال استنفاره همهم وهم بحضرة العدو قام أحدهم إليه مستفهما عن مدى صحة ما سمعه منه بقوله: "أأنت سمعت هذا من رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؟" بأسلوب المقرّر المستوثق، وعندما أجابه بنعم، كان رد الفعل سريعا وملائما، حيث عزم السائل على ألا يطول عهده بالدنيا، وأن تفتح له أبواب الجنة بسبب مباشرته لأعظم أسباب فتحها وهو الجهاد في سبيل الله -تعالى-،

يتبين لنا ذلك من قول الراوى: "فرجع إلى أصحابه، فقال: أقرأ عليكم السلام، وكسر جفن سيفه، فضرب به حتى قُتل" فلقد ودّع أصحابه الوداع الأخير، وعزم على ألا يغمد سيفه مرة ثانية، وذلك بكسره لجفنه الذى يواريه، وظل يقاتل به مستظلا بظله حتى نال ظلا أعظم لا ينقطع، وهو ظل الجنة، فأنعم بفعله، وأعظم بثوابه.

* * *

ويُهوّن النبي -صلى الله عليه وسلم- من خطب القتل فى ميدان الجهاد بقوله:

"مَا يَجِدُ الشَّهِيدُ مِنْ مَسِّ الْقَتْلِ إِلَّا كَمَا يَجِدُ أَحَدُكُمْ مِنْ مَسِّ الْقَرْصَةِ"^(١)

فربما يضمن الإنسان بنفسه، ويجبن عن المشاركة فى القتال لا رغبة فى الحياة ولكن خوفا من ألم القتل الذى قد يُهوّل الشيطان له من أمره، ويصوره له بصورة شديدة تدعوه إلى النقايس، وتثبط من همته،

ومن أجل ذلك نرى النبي -صلى الله عليه وسلم- يقرر فى هذا الحديث حقيقة هامة وهى أن ألم القتل فى سبيل الله يشبه فى يسره ألم القرصة حثا على بذل النفس وعدم الاستجابة لداعى الجبن والتخاذل.

ولما كان فى هذا القول من مبالغة فى التهوين من ألم القتل قد يتسرب بسببها الشك إلى النفوس الضعيفة رأينا النبي -صلى الله عليه وسلم- يحتاط لذلك بتأكيد له لقوله بمؤكد قوى يدفع الشك عنه، ويحمل على التسليم بصحته، واليقين بصدقه، هذا المؤكد هو القصر بطريق النفى والاستثناء، فقد قصر النبي -صلى الله عليه وسلم- ما يجده الشهيد من ألم القتل على ما يجده الإنسان من ألم القرصة قصرا حقيقيا تحقيقا يكتسب القول بسببه قوة وتأكيذا يُبلّغانه المراد منه، ويحققان له ما ينشده

(١) الجامع الصحيح للترمذى. كتاب فضائل الجهاد، باب ما جاء فى فضل المرباط. رقم (١٦٦٨)

والمس: هو أول ما يُحس به من التعب والألم- والقرصة: القرص بالإصبعين وقيل: التجميش والغمز بالإصبع حتى تؤلمه- لسان العرب مادتا: [مس، وقرص].

وفى التعبير عن الألم بالمس مبالغة فى تقرير بلوغه فى اليسر حدا متناهايا، ومن ثم لا ينبغى أن يكون معوقا عن الجهاد فى سبيل الله.

ولا يخفى ما للصورة التشبيهية فى الحديث الشريف من أثر فى تأكيد ضالة ألم القتل فى سبيل الله - تعالى - وتقرير يسره بتشبيهه بشئ قد لا يوجد له ألم أصلا، وإن وُجد فهو ألم جد يسير لا يُعبأ به، يؤخذ ذلك من تكرير لفظ المس فى صورة المشبه به، وتقبيده به.

لقد بلغ النبى - ﷺ - بهذا القول الموجز من الإيضاح لحقيقة القتل فى سبيل الله، والحث على بذل النفس، والتأكيد على ضالة الألم الذى يجده الشهيد حال قتله ما لا يبلغه القائد اللسان الذى يطيل الوقوف بين يدى جنده خطيبا حثا لهم على الجهاد، وعدم مهابة القتل فى سبيل الله - تعالى - .



المبحث السابع

التوكيد في مقام الحديث عن الدعاء و الذكر

المبحث السابع

التوكيد في مقام الحديث عن الدعاء و الذكر

الذكر هو ما جرى على اللسان من تسبيح وتحميد وتمجيد وثناء على الله - تعالى - بما هو أهله^(١).

ومنه الدعاء وهو من أهم وأعظم وسائل القرب من الله - تعالى - حيث لا مؤنة ولا جهد في فعله، ولا زمان يحول دون أدائه، به تقضى الحوائج، وتفرج الكرب (وهما مما يشعر الإنسان بضعفه في الحياة، ومن ثم فهو يلتمس المخرج لنفسه بالالتجاء إلى قوة كبيرة تنقذه من شدته، وتنشله من عذابه، ولن يكون لدى المسلم الصادق قوة أعظم من خالقه ومحبيه، لذلك كان الالتجاء إلى الله - تعالى - في كل أمر مفزعا طبيعيا يهرع إليه المؤمنون واثقين ببعونه، وليس لهم غير أن يترجموا عن أزماتهم الكاربة بكلمات صادقة مخلصة تتمثل في الدعاء)^(٢)، قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَا﴾^(٣) دعاء^(٤).

ونظرا لأهمية الدعاء، وتأكيدا على عظيم فضله، ورفعته شأنه يقرر النبي - ﷺ - اشتماله لمعاني العبادة، وتمثيله لها، بما رواه عنه النعمان بن بشير - رضي الله عنه - بقوله:

قال رسول الله - ﷺ -: "الدَّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَقَالَ رَبِّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾"^(٥).

وإنما كان الدعاء ممثلا للعبادة، وجامعا لمعانيها (لأنه سبيل لإظهار العبد العجز، والاحتياج من نفسه، والاعتراف بأن الله - تعالى - قادر على إجابته، كريم لا بخل له ولا فقر، ولا احتياج له إلى شيء حتى يدخره لنفسه، ويمنعه من عباده، وهذه الأشياء هي العبادة، بل مخها)^(٥).

(١) ينظر: لسان العرب، مادة: [ذكر]

(٢) ينظر: البيان النبوي، ص ١٩٩.

(٣) سورة البقرة، آية رقم (١٨٦).

(٤) الجامع الصحيح للترمذي. كتاب الدعوات، باب ما جاء في فضل الدعاء رقم (٣٣٧٢) والآية رقم (٦٠) من سورة غافر وداخرين: الداخر: هو الذليل المهان. النهاية في غريب الحديث، مادة: (دخر).

(٥) ينظر: تحفة الأحوذى ٣٧٥/٨.

ولكمال عنايته -ﷺ- بهذا المعنى، واهتمامه بتقريره نراه قد عرضه فى أسلوب يكسبه توكيدا، وتحقيقا يتمكن بهما فى نفس السامع، ويرسخ فى عقله، وذلك حيث قصر العبادة على الدعاء قصرا حقيقيا ادعائيا فى قوله: "الدعاء هو العبادة" مريدا بذلك المبالغة فى تحقق كمال المسند إليه، وهو الدعاء، وشموله لمعانى العبادة .

وسبيل هذا القصر هو تعريف ركنى الإسناد بأل الجنسية ومما يزيده تحققا توسط ضمير الفصل "هو" بين كل من المبتدأ والخبر دلالة على تأكيد المبالغة فى اختصاص المقصور عليه بالمقصور، ولقد قرر هذا المعنى الإمام عبد القاهر بقوله: "إذا قيل لك: "زيد المنطلق" صار الذى كان معلوما على جهة الجواز معلوما على جهة الوجوب ثم إنهم إذا أرادوا تأكيد هذا الوجوب أدخلوا الضمير المسمى فصلا بين الجزئين فقالوا: "زيد هو المنطلق" (١).

والحق أنه قد تردد كثير من البلاغيين فى إفادة ضمير الفصل معنى القصر ومن هؤلاء الزمخشري (٢)، وبهاء الدين السبكي (٣)، وذلك نظرا لأنه إذا حذف هذا الضمير من الكلام المشتمل عليه فإن فائدة الحصر تظل كما هى، وإذا أعيد كان غرضه توكيد الدلالة على الحصر، ومن ثم فهو يأتى فى مواضع يحتاج معها إلى توكيد أكثر وتقرير مبالغ فيه كما هنا.

وتصعيدا لوتيرة التأكيد لهذا المعنى، وإلزاما للمخاطب بالتسليم بصدق ما يسمع، وقطعا لسبيل الشك، أو الاعتراض، نرى النبى -ﷺ- قد أقام الحجة على صدق قوله، وتأكيده

تأكيدا لا مزيد فوقه بإتباعه ما يقويه ويقرره، وهو قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي

أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾، فالآية الكريمة تفيد أن الدعاء عبادة، (وقد استدل بها النبى -ﷺ- على ذلك لأن الدعاء فيها مأمور به، والمأمور به عبادة، وقيل: إن استشهاده -ﷺ- بالآية لدلالاتها على أن المقصود يترتب عليه ترتب الجزاء على الشرط، والمسبب على السبب، ويكون أتم العبادات، ويقرب من هذا قوله -ﷺ- فى حديث آخر: "الدُّعَاءُ مَخُّ الْعِبَادَةِ"، أى خالصها) (٤).

(١) دلائل الإعجاز ص ١٧٨.

(٢) ينظر: الكشاف ١/ ٥٤.

(٣) ينظر: عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص ١/ ٣٨٧.

(٤) تحفه الأحوذى ٨/ ٣٧٤.

(ففى استناده - ﷺ - إلى دليل من القرآن الكريم تقرير للمعنى المراد فى نفوس المؤمنين، وإن كانوا مصدقيه دون توثيق بالدليل، ولكنه بذلك يفتح لهم باب النظر فى الكتاب الكريم، ويعرفهم كيف ينتفعون بالدليل ليحكموا القرآن فى سلوكهم، ويجعلوه القياس لكل أعمالهم) (١).

* * *

ومن الدعاء الوارد عنه - ﷺ - قوله:

"اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَمِنْ نِدَاءٍ لَا يُسْمَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَمِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَؤُلَاءِ الْأَرْبَعِ" (٢)،

فالنبي - ﷺ - يُعَلِّمُ أمته بهذا القول أمورا يتعوذون بالله - تعالى - منها طلبا للسلامة فى الدنيا والآخرة، فما ترك ﷺ أمرا يجلب خيرا، أو يدفع شرا إلا وعلمه أمته، ومن ذلك هذا الدعاء الذى بين أيدينا، فما استعاذ - ﷺ - من هذه الأشياء الأربع خشية أن يصيبه ضررها، فحاشاه ألا يخشع قلبه، وألا يسمع دعاؤه، وألا تشبع نفسه، وألا ينفع علمه، ولكن لينبئه المسلمين إلى عظم ضرر هذه الأشياء المستعاذ منها، ليتحروا عدم الوقوع فيها، ويديموا الدعاء وطلب السلامة منها.

ويعرض النبى - ﷺ - دعاءه معرض المُلِح فى طلب استجابته، وذلك بتأكيد بهما يشعر بدوام الطلب واستمرار الضراعة والتوجه إلى الله - تعالى - وهو إنَّ واسمية الجملة فى قوله: "اللهم إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ"، ففى هذا البدء تأكيد وتقرير للمدعو به مع الإشعار بأهميته، ولفت انتباه السامع إليه، ودعوته إلى التفكير فى جملة وجزئياته،

(وعندها سوف يدرك أن فى كل من القرائن الأربع ما يشعر بأن وجوده مبنى على غايته، وأن الغرض منه تلك الغاية، فالقلب إنما خُلِقَ لأن يتخشع لبارئه، وينشرح لذلك الصدر، ويُقْذَف النور فيه، فإذا لم يكن كذلك كان قلبا قاسيا يجب أن يستعاذ منه، والدعاء يرجى له القبول، وعدم سماعه فضلا عن عدم قبوله يدل على شدة غضب الله - تعالى - على الداعى، ومن هنا كانت الاستعاذة من عدم سماع الدعاء، والنفس إنما يعتد بها إذا تجافت عن دار

(١) ينظر: الحديث النبوى الشريف من الوجهة البلاغية ص ٢٤٣.

(٢) الجامع الصحيح للترمذى. كتاب الدعوات، باب ما جاء فى جامع الدعوات عن النبى - ﷺ - رقم (٣٤٨٢).

الغرور وأنابت إلى دار الخلود، فإذا كانت مفهومة لا تشبع حريصة على الدنيا كانت أعدى أعداء المرء، وبذلك تكون أولى ما يستعاذ منه، والعلم إنما يُحصَل للانتفاع به، فإذا لم ينتفع به لم يُخلص منه كفافاً، بل يكون وبالاً، ولذلك يستعاذ منه^(١)،

ومن ثم كان تقييد هذه الأشياء الأربع بقيد يوجب الاستعاذة منها، والإلحاح في طلب عدم التلبس بها.

ومن يتأمل الدعوات الأربع يحس مالها من إيقاع صوتي ذي أثر قوي في جذب انتباه السامع، ودعوته إلى الإلتصاف لما يسمع، بسبب توافق فواصلها، والسجع أو توافق الفاصلة مما "يزيد الكلام روعة، ويملاً القلوب تأثراً لعذوبة جرسه، وشجو رنينه، وطيب نغمه، حيث يدخل على الآذان مشتاقاً، وعلى القلب وامقاً، فيكون أداة مما به يتقرر المعنى، ويسهل الحفظ"^(٢).

وحرصاً منه -ﷺ- على زيادة تقرير المدعو به، والتأكيد على طلب إجابته، نراه وقد كرره في عبارة موجزة جامعة له، وهي قوله: "أعوذ بك من هؤلاء الأربع"، وفي ذلك كمال عناية بالمدعو لعظم المفسدة المترتبة على التلبس بأيّ منه، وتنبيه على ضرورة الإلحاح في الطلب فإن ذلك أدعى للقبول.

ومما يعظم تأكيد المدعو به، ويكسبه مزيد تحقيق وإيضاح، حصر المستعاذ منه في هذه الأشياء الأربع بطريق التعريف للمسند إليه في قوله -ﷺ-: "هؤلاء الأربع" بأل الجنسية مبالغة في طلب الاستعاذة منها، ولا يخفى ما في الوصف بقوله: "الأربع" من تحديد وتقييد يقوى معنى الحصر، ويزيده تأكيداً.

* * *

ومن المستعاذ منه إلى ما يُرجى حصوله وتقرره في النفس، فيروى أن أبا بكر الصديق -رضي الله عنه- قام على المنبر ثم بكى، فقال: قام رسول الله -ﷺ- عام الأول على المنبر ثم بكى فقال:

"اسْأَلُوا اللَّهَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ، فَإِنَّ أَحَدًا لَمْ يُعْطَ بَعْدَ الْيَقِينِ خَيْرًا مِنَ الْعَافِيَةِ"^(٣)،

(١) ينظر: تحفة الأحوذى، ٤٨٠/٨.

(٢) الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية ص ٢٨٤.

(٣) الجامع الصحيح للترمذي. كتاب الدعوات، باب في دعاء النبي ﷺ. رقم (٣٥٥٨).

والعفو: محو الذنوب -والعافية: أن تسلم من الأسقام والبلايا، وهي الصحة وضد المرض. النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (عفا)-

واليقين: العلم، وإزاحة الشك، وتحقيق الأمر. لسان العرب مادة [يقن].

بداية أذكر أن الصّدِّيق -عليه السلام- قد ضرب للأمة بكيفية روايته لهذا الحديث أروع، وأعظم أمثلة التتبع والاقتفاء لآثار المتبوع، فماذا كان يضيره لو شافه الناس بهذا الحديث وهو جالس، أو واقف مكانه دون صعود على المنبر؟، إنَّ فعله ليدل دلالة قاطعة على شدة تحريه لأفعال النبي -عليه السلام- وإرادته أن ينقل الحديث بكيفية التي تلقاه بها لزيادة تأثيره في المخاطبين، وليبُت في نفوسهم الرغبة في السؤال عن دواعي القيام على المنبر، ثم البكاء،

فإذا بكلمات الحديث تجيب بما يدفع السامعين إلى الاستجابة لأمر النبي -عليه السلام- فيه، فتلهج ألسنتهم بالدعاء الوارد فيه، وربما سكبت أعينهم دموع الخشية لما ينطوى عليه هذا الدعاء من تحذير من فتن مستقبلية، (دعت النبي -عليه السلام- إلى البكاء لعلمه بوقوع أمته فيها، وغلبة الشهوة، والحرص على جمع المال، وتحصيل الجاه عليها، ومن ثم أمرهم بطلب العفو عن الذنوب، والعافية في الدين من الفتنة، وفي البدن من سيئ الأسقام، وشدة المحن) (١)

فعلاوة على ما في أمره -عليه السلام- بسؤال الله -تعالى- العفو والعافية من نصح للأمة، وإرشاد لها إلى ما فيه خيرها وسعادتها، ففيه -أيضا- إشعار بأهمية الأمور به، وتقديره، وذلك بإعادة وتكرير طلب العفو ضمنا، إذ العافية كما نقل المباركفوري عن الطيبي تعنى "السلامة من الآفات، فيندرج فيها العفو" (٢)، وفي ذلك زيادة تنبيه على أهمية طلب العفو تجريدا للمرء من ذنوبه وآثامه حتى إذا قدم على الله قدما بريئا مما يشينه.

ونظرا لما تنثيره جملة الأمر في نفس السامع من سؤال عن سبب الاقتصار على الأمور به -هنا- مع سبقه بالقيام على المنبر، والبكاء، مما يقذف في نفس السامع أسئلة كثيرة تتطلب جوابا، نرى النبي -عليه السلام- قد بادر بإزالة الإبهام، والإجابة عما يدور في النفس من تساؤل بقوله: "فإنَّ أحدا لم يُعط بعد اليقين خيرا من العافية" مؤكدا بأداة التوكيد "إنَّ"، وبأسلوب النفي العام الذي لم يعقب باستثناء يقلل من عمومته ومبالغته، على عظيم نفع الأمور به، وكمال خيريته، ورفعة رتبته وشرفه، فرتبته تالية لرتبة الإيمان بالله -تعالى- الممكنى عنه باليقين تعظيما وتشريفا.

(١) ينظر: تحفة الأحوذى ٧٠/٩.

(٢) ينظر: تحفة الأحوذى ٧١/٩.

(وإنما اكتفى بذكر العافية ثانيا لعموم معناها الشامل لمعنى العفو، وإن كان ذكر العفو أولا يشعر بأنه أهم أنواعها) ^(١) كما بينت، وبذلك يتقرر عند السامع أهمية الدعاء المأمور به، وتتأكد فضيلته، ومن ثم يكثر من طلب العفو والعافية، ولا يفتر عن ذلك مادام حيا.

* * *

ومن أحاديث الذكر ما جاء مؤكدا قوله — ﷺ — :-

"أَلَا أَنْبِئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ، وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِكِكُمْ، وَأَرْفَعُهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْرَ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالْوَرَقِ، وَخَيْرَ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ، وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ؟ قَالُوا: بَلَى. قَالَ: ذَكَرُ اللَّهِ تَعَالَى" ^(٢)

فالنبي — ﷺ — يريد أن يقرر في نفوس المسلمين حب الذكر، والرغبة في الإكثار منه، ودوام فعله وحتى يتحقق له ذلك نراه قد استعان على ذلك في بادئ أمره بالألّا التنبيهية التي ما إن يسمع الإنسان بها إلا أيقن بأهمية ما يأتي بعدها فيغيره من الانتباه والاهتمام ما يجعله يرسخ في ذهنه، ويتأكد المراد منه لديه،

ويزداد السامع يقظة وانتباها عندما يسمع قوله — ﷺ —: "أَنْبِئُكُمْ" بدلا من أخبركم، لدلالة مادة "نبأ" على رفعة شأن ما يخبر به، وتحقق وقوعه، "فالخبر حين يكون محقق الوقوع ذا فائدة جليلة يحصل به علم، أو غلبة ظن يطلق عليه بهذه القيود نبأ" ^(٣)، (ولذا سمي الله القرآن الكريم وما فيه نبأ قال تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَاِ الْعَظِيمِ﴾، وقال ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾، ومنه النبوة، والنبي لإنبائه عن الله صدقا ما تسكن له العقول) ^(٤).

(١) ينظر: تحفة الأوصياء ١١/٩

(٢) الجامع الصحيح للترمذي. كتاب الدعوات، باب ما جاء في فضل الذكر. رقم (٣٣٧٧)، وأنبئكم: أخبركم فالنبا الخبر - أزكاها: أي أكثرها طهارة ونماء وبركة- والورق: بكسر الراء الفضة. ينظر النهاية في غريب الحديث والأثر، المواد: (نبأ، زكا، ورق). والمليك: ذو الملك. من صيغ المبالغة. ينظر: لسان العرب مادة: (ملك).

(٣) الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم د/ صباح عبيد دراز ص ٧، ط ١ مطبعة الأمانة. مصر ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.

(٤) ينظر: المفردات للراغب، مادة (نبأ)، والآية الأولى من سورة النبأ رقم (٢٠١)، والثانية من سورة ص رقم (٦٧)

وتشتاق نفس السامع بعد ذلك إلى الوقوف على هذا النبأ، وتزداد رغبة في معرفته، فيزيدها النبي - ﷺ - شوقاً إلى شوقها بسرده أوصاف هذا النبأ في قوله: "بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليكم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟"، عند هذا الحد يتأكد السامع من أنه بصدد الوقوف على معرفة أمر جليل يفوق فضله فضل سائر الأعمال، ويجاوزها ثواباً وجزاء، فالناظر في هذه الجمل السابقة يعلم ذلك، حيث أكد النبي - ﷺ - خيرية ما يريد الإنباء به بزيادة الباء أولاً في المفعول في قوله: "بخير" وما يفيد الحرف الزائد من قيامه مقام إعادة الجملة مرة أخرى تقريراً لها.

ثم بالتعميم للمفضل عليه في قوله: "أعمالكم" فما من عمل يخطر ببال السامع إلا وما سوف ينبأ به أفضل منه،

ثم بالمبالغة في إثبات صفات الكمال والرفعة لهذا الأمر بقوله: "وأزكاها عند مليكم، وأرفعها في درجاتكم" فهو أنمى الأعمال وأنقاها، وأكثرها ثواباً.

ثم بعد ذلك نرى النبي - ﷺ - قد صعد من تأكيده لتجاوز فضل العمل الذي يريد إنباء الأمة به فضل سائر الأعمال الأخرى، بتخصيصه لعملين قد يخطر ببال السامع أنهما الأفضل والأكثر ثواباً لتعلقهما باتفاق ما يشتد حرص الإنسان على بقائه، وهو المال، والنفوس، وتكريره تفضيل ما يريد الإنباء به عليهما على سبيل ذكر الخاص بعد العام في قوله: "وخير لكم من إنفاق الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم" وبذلك يتضاعف التأكيد والتقرير لفضل هذا الأمر.

وإذا بالنفوس قد بلغ بها الشوق لمعرفته مبلغه، واشترأت الأعناق وتناولت استعداداً لتلقى هذا النبأ العظيم بعد جوابهم على استفهام النبي - ﷺ - بقولهم: "بلى" في إيجاز مهيب نتيجة لما خيل لهم بسبب هذا التقديم من صعوبة هذا العمل الأفضل، واقتترانه بمشقة زائدة نظير زيادته في الأجر .

وإذا بالمفاجأة الكبرى التى تصيبهم بالدهشة والسرور معا فى آن واحد، وذلك عند سماعهم جواب النبى - ﷺ - بقوله: "ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى"، (وبذلك يتقرر عند السامع أن الثواب لا يترتب على قدر النَّصَب فى جميع العبادات، بل قد يأجر الله - تعالى - على قليل الأعمال أكثر مما يأجر على كثيرها، إذ الثواب يترتب على تفاوت الرتب فى الشرف) ^(١) وهل هناك أيسر مؤنة وأعلى رتبة من ذكر الله تعالى؟

* * *

ويؤكد النبى - ﷺ - فضل الذكر ببيانه عظيم جزاء الله - تعالى - على بعض منه بقوله:

"مَا عَلَى الْأَرْضِ أَحَدٌ يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، إِلَّا كُفِّرَتْ عَنْهُ خَطَايَاهُ، وَلَوْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ" ^(٢)

فكثيرا ما يظلم الإنسان نفسه باقترافه الذنوب، وارتكابه المنكرات، وقد يظن أن ما فعله قد بلغ من السوء والقبح بحيث لا يناله عفو، ولا تطاله مغفرة، فيستولى عليه اليأس، وما إن يسمع بهذا الحديث وأمثاله مما يدور فى فلكه إلا ويطمئن قلبه، ويعلم أن عفو الله أعظم، وأن مفتاح هذا العفو، والسبيل الموصل إليه أيسر، فما هو إلا كلمات يضرع إلى الله - تعالى - بها فى إخلاص وصفاء حتى تُغفر ذنوبه، وتمحى عنه آثامه، إلا ما كان منها متعلقا بالعباد، فيحتاج لغفرانه زيادة على ذلك التحلل من الذنب بعفوٍ من تعلق به، أو بردّ المظالم إلى أهلها.

ويؤكد النبى - ﷺ - على تسبب كلمات الذكر هذه فى مغفرة الذنوب، ومحو آثارها بعرضها فى أسلوب يمنحها من القوة والتأكيد ما تقف به حجر عثرة أمام ريب المرتابين، وإنكار المنكرين، هذا الأسلوب هو أسلوب القصر بطريق النفى والاستثناء فى قوله - ﷺ -: "ما على الأرض أحد يقول: لا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله إلا كفرت عنه خطاياها" فتعبيره - ﷺ - عن المعنى المراد بهذا التأكيد والتقرير ليترجم لنا مدى اهتمامه بتقريره عند السامع، وترسيخه فى ذهنه.

(١) ينظر: تحفة الأحوذى ٨/٣٨٠.

(٢) الجامع الصحيح للترمذى. كتاب الدعوات، باب ما جاء فى فضل التسبيح والتكبير والتلهيل والتحميد. رقم (٣٤٦٠). والحوّل: الحركة، يقال: حال الشخص يحول إذا تحرك وقيل: الحول: الحيلة. والأول أشبه النهاية فى غريب الحديث. مادة: (حول). والزبد: طفاوة الماء وقذاه، والجمع أزياد. لسان العرب مادة: (زبد).

وفى تنكيـره -ﷺ- لفظ "أحد" تأكيد -أيضا- على شمول عفو الله، ومغفرته مهما عظم الذنب وتنوع.

وفى تقييده النكرة بالأوصاف التالية لها تأكيد على رحمة الله -تعالى- وتيسيره على عباده، وإرادته أن تنالهم جميعا رحمته، فالمطلوب لذلك هو إجراء كلمات التوحيد، والتمجيد، والإنابة هذه على لسان المرء مع إخلاص قلبه بها.

وإذا نظرنا إلى النتيجة المترتبة على ذلك وجدناها أعظم ما يكون أثرا وأجل قدرا يمثلها قوله -ﷺ-: "كُفِّرَتْ عَنْهُ خَطَايَاهُ" بصيغه الجمع مما يفيد عموم التكفير والمحو للذنوب والخطايا جميعها دون تفريق بين صغير، وكبير ترغيبا زائدا، وحثا أكثر على دوام التوجه إلى الله -تعالى- بهذه الكلمات الطيبة وأمثالها.

ولو وقف النبي -ﷺ- على هذا القول واكتفى به لحصل ما يهدف إليه من تقرير لفضل الذكر، وحث عليه، ولكن نراه -ﷺ- يباليغ فى التقرير والتأكيد لفضل الذكر، وأثره فى تكفير الخطايا بقوله: "ولو كانت مثل زبد البحر"، (والمراد بذلك الكناية عن المبالغة فى كثرة الذنوب)^(١)، ومن ثم صور النبي -ﷺ- هذا المعنى تصويرا ضاعف من تأكيده وتقريره لشمول التكفير بسبب الذكر الوارد -هنا- لجميع الذنوب مهما كانت كثيرة.

فَمَنْ مِنَ الْخَلْقِ بَلَغَتْ ذُنُوبُهُ مِنَ الْكَثْرَةِ مَا يَجْعَلُهَا شَبِيهَةً بِزَبْدِ الْبَحْرِ؟! وَإِنْ وَجَدَ مِنْ بَلَغَتْ ذُنُوبُهُ هَذَا الْحَدَ فَتَوْحِيدُهُ اللَّهُ يَجِبُ مَا قَبْلَهُ، ويمحوه، وتكبيره وثناؤه عليه يُنْقِي نفسه، ويطهر روحه، وتفويضية أمره إليه يجعله من المقربين.

وبذلك لا يملك السامع لهذا الحديث إلا أن يقول: لا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله. بصدق وإخلاص رغبة فيما عند الله -تعالى-.

* * *

ومن فضائل الذكر ما أخبر به النبي -ﷺ- فى قوله:

"مَا مِنْ قَوْمٍ يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا حَفَّتْ بِهِمُ الْمَلَائِكَةُ، وَغَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ، وَنَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ"^(٢)

(١) ينظر: تحفة الأحوذى ٤٦١/٨.

(٢) الجامع الصحيح للترمذى. كتاب الدعوات، باب ما جاء فى القوم يجلسون فيذكرون الله ما لهم من الفضل.

في هذا الحديث يحث النبي -ﷺ- المسلمين على دوام الذكر، ويدفعهم إليه برفق من خلال ترغيبهم فيما عند الله -تعالى- للذاكرين، (ويُبين ذلك النبي -ﷺ- بيانا مؤكدا بحصر الحالة التي يكون عليها أهل الذكر في تلكم الأضراب من الجزاء الكريم، والتجلى الإلهي، حتى يروا أن ما يبذلون من السبب هينا يملكونه وما يُوهب من الثواب عظيما يرجونه، فتَهش نفوسهم للذكر يتنافسون فيه، وتستيقظ قلوبهم فترى وهي تذكر الله -تعالى- ما أخبر به الصادق المصدوق رأى عين) (١)،

ويضاعف من تأكيد المعنى زيادة "مَنْ" بعد ما النافية في قوله -ﷺ-: "ما من قوم" لدلالة الحرف الزائد على تقرير المعنى المراد وترسيخه في ذهن السامع، وفي ذلك عناية بالغة، واهتمام زائد بذكر الله -تعالى- والحرص عليه،

(وفي تعبيره -ﷺ- بلفظ "قوم" إشارة إلى فضل الجماعة، حيث يُذكر بعضهم بعضا ما نسي، ويكشف ما خفي) (٢)، وفي تكريره أيضا تعظيم وتشريف للاجتماع على أعمال البر والطاعة.

وما من إنسان يتأمل فضل الله -تعالى- وامتنانه على أهل الذكر الذي يمثله قوله -ﷺ- "حفت بهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده" إلا ويتأكد عنده فضل الذكر، ويعقد عزمه على أن يحسب عند الله ذاكرا .

فأهل الذكر يحفهم ويحيط بهم ملائكة الرحمن تعظيما وتشريفا لما جلسوا من أجله، وتغشاهم الرحمة حتى وكأنها خباء يحتمون به ^{من} أن ينالهم أذى، أو يصيبهم مكروه حالة انشغالهم بذكر الله -تعالى- وهذا ما يفيد تصوير الرحمة بالخباء على سبيل الاستعارة المكنية مبالغة في إحاطتها بأهل الذكر،

ثم إن السكينة لتنزل عليهم فيحسون أثرها طمأنينة في قلوبهم، وسكونا في جوارحهم، كما أن التعبير بالنزول في جانب السكينة يوحي بتجسيدها -أيضا- وذلك على سبيل الاستعارة المكنية المبنية على التخيل مبالغة في الإثبات والتحقيق لما يراد تصويره .

رقم (٣٣٧٨) وحفت بهم: أي طافت بهم، ودارت حولهم -وغشيتهم: أي غطتهم- والسكينة: أي الطمأنينة والوقار. ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر الموارد [حفف - غشا - سكن].

(١) ينظر: الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية ص ١٣٢، ١٣٣.

(٢) ينظر: الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية ص ١٣٣.

وأعظم من ذلك كله ذكر الله -تعالى- لهم مباهايا بهم ملائكته، ومفتخرا بهم أمامهم، وذلك دليل رضا بفعلهم، وقبوله لذكرهم، وتسبيحهم .

وذكر الله -تعالى- لهم يخالف ذكرهم إياه، وإنما عُبرَ عن رضا -تعالى- عن فعلهم، ومباهااته بهم بلفظ الذكر على سبيل المشاكلة لوقوعه في صحبة الذكر الأول تحقيقاً، وفي ذلك تنبيه للسامع، وإيضاح وتقرير للمعنى المراد فضلاً عن تحسينه.

"فالمشاكلة لون بديعي خلاب يثير الانتباه، وينشط العقول، ويستدعي التفكير والتدبر، وذلك لأن المعنى المراد يظهر في لفظ غير لفظه، فيبدو في رداء غير مألوف، ولباس غير معتاد، مما يثير انتباه المتلقى، ويستدعي إصغاءه، ويبعث عقله على التفكير في اللفظ المعروض عليه، والمعنى المراد منه، فإذا علمه بعد ذلك تأكد لديه وثبت عنده" (١)

ومما تجدر الإشارة إليه هذا التناسب والتلاؤم بين ألفاظ الحديث، فكل لفظة تستدعي صاحبها، وتمهد السبيل إليها، فلا وحشة ولا نفرة، بل السلاسة والاتسجام هما طابع هذا الحديث وغيره من أحاديثه -ﷺ، "ومعلوم أن التناسب - أو مراعاة النظير - أمر ضروري في بلاغة الأساليب، وأن الأسلوب البليغ تتلاءم ألفاظه، وتتناسب معانيه، ويكون منظوماً على نسق مؤتلف في شكله ومضمونه" (٢) كما هو الحال هنا،

وبعد: فهل من سبيل إلى الترغيب في ذكر الله -تعالى-، والتأكيد على فضله أبلغ من

بيانه - ﷻ -؟

* * * * *

(١) دراسات منهجية في علم البديع، د/ الشحات محمد أبو ستيت، ص ١٤٩، ط ١، دار خفاجي للطباعة والنشر - شبين الكوم ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م.

(٢) السابق ص ٩٠.